13 me Année No. 646

Lundi—19—11—1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٦٤٦ « القاهرة في يوم الإثنين ١٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٤ — ١٩ نوفبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

خـــــواطر . . .

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

كتب إليّ بعضهم يستشيرني في العيد كيف يقضيه ! حتى عن هذا يسأل بعضهم ! وقد حرت كيف، وبماذا أجيب ؟ ثم خرجت من المأزق الذي زج بي فيه سؤاله بكتاب وجيز، هذا بعض ما فيه :

« والشرط في العيد أن يشترى لك سواك كسوة، فإذا لم يوفقك الله لهذا، أو كنت ممن يَشترون ولا يُشترى لهم، فلا عيد لك . ويجب أن يكون مع الكسوة لعبة — أي لعبة — كرة ملونة مخططة، أو زمارة، أو حصان خشبي، أو ما شئت غير ذلك، على أنك سألتني فأنا أختار لك « البارود » إذا كنت غلاماً، وإذا كنت لا تعرفه فاعلم أنه « فتيل » ملفوف عليه ورق أحمر، وبعضه في سمك القلم، والبعض أسمك من ذلك جداً، والأول يُرَصّ في علبة، والثاني يستعمل فرادى لضخامته . وإذا أشعلت النار في هذا أو ذاك، انطلق منه مثل أصوات البنادق والمدافع . أما إذا كنت « بنتاً » فأنا أشير عليك بما يسمى « على لوز » وهو سكر يُحل ويُعقد، ويزين باللوز والبندق والفستق، وما إلى ذلك، وتحمله الفتاة في طبق — بعد أن يبرد لئلا تحرق أصابعها الناعمة — وتدور به على الصبيان تبيعهم منه، كل ملء ملعقة صغيرة بمليم، وهذا هو السعر القديم، وزيادته جائزة .

« واحرص على أن تُعطي في العيد بلا تقتير أو حساب، فتأخذ باليمين لتنفق بالشمال، وكلما فرغت يدك وذهب ما معك، عدوت إلى أهلك تطلب منهم أن يعطوك، وتبكي وتصيح وتدبدب برجليك — وبيديك أيضاً إذا شئت — وتتمرغ على البساط، أو البلاط وهو أفضل — إذا أبطأوا وتلكؤوا في العطاء، أو بخلوا به . فإذا ملأوا جيوبك قروشاً ذهبت إلى الأراجيح، وبعضها خيل تدور براكبها حتى تدور رءوسهم، والبعض « دكك » أربع كل اثنتين منها متقابلتان، تدور كالساقية وأنت معها، فتسر أو تخاف، وتصرخ أو تغني على هواك، والدكك دائرة كالأيام، صاعدة بك طوراً، وطوراً هابطة، لا تبالي — كالأيام أيضاً — أضحكت أم بكيت، وفرحت أم جزعت . ومن الأراجيح أيضاً نوع لا أشير به عليك إذا كنت فتاة، فإنه يعريك ويطير ثوبك عما تحته، وهو عبارة عن لوح مشدود من الجانبين إلى حبلين معلقين، يقف عليه الفتى ويمسك الحبلين بيديه، ويروح يدفع اللوح بقدميه، فيندفع من الخلف إلى الأمام، ومن الأمام إلى الخلف، فإذا كنت قوياً أو مدرباً، بلغ بك علواً كبيراً .

« وإذا لم يعجبك هذا الذي أقترح فإنه لا يبقى لك إلا أن تذهب إلى القبور فتزور موتاك، وتترحم عليهم وتستغفر لهم، والسلام » .

وقد ندمت بعد أن وضعت الكتاب فى صندوق البريد ، لأنى خفت أن يصدر عن رأيى ، فيفعل ما أشير به ! ومن الغريب أن هذا هو الرد الوحيد الذى بعث به على ما جاءنى من الرسائل فى شهر كامل !

صدق من قال : يُثاب المرء رغم أنفه !

* * *

ما أعجب غرور الإنسان ! وما أحوج الإنسان إليه !

لى صديق — وفى هذا مبالغة قليلة ولكنه لا ضير منها — ليس بينه وبين النوريللا فرق ، وقد اعتاد أن يتخذ مكانه كل يوم على مقهى يكثر مرور الناس — رجالا ونساء — على رصيفه ، وهو على طريقى فى أغلب غدواتى وروحاتى . ومن عجيب أمره أنه شديد التأنق فى ملبسه ، كأن من الممكن أن يحجب حسن الهندام قبح الوجه وسخافة القوام . وكان أولى به فى رأيى أن يتوارى عن العيون فى مقهى فى زقاق ضيق إذا كان لا بد من الجلوس فى مقهى . وقد سألته مرة وقد ألح عليّ فى مجالسته : لماذا تؤثر هذا المكان والضجة فيه عظيمة !

قال « أتفرج على الناس »

قلت « أو يتفرجون عليك ! »

فلم يسؤه قولى بل ضحك وقال « لا بأس : يتفرجون وأتفرج »

قلت «أواثق أنك تحمد العاقبة ! »

قال « لا شك ! أنظر إلى هذه الفتاة التى ترشقنى بنظرتها الحلوة »

فأحنقنى واستفزنى هذا الغرور وقلت « لعلك تظن أنك فتنتها بجمالك ؟ »

فما انهزم والله ، بل قال « وهل فى هذا شك ؟ »

فلم أطق صبرا على هذا الغرور فانصرفت عنه ، وإنى لأدرى أن بالإنسان حاجة إلى قدر من الغرور يعوذ به ويعول عليه ، ويستمد منه القدرة على احتمال حياته ؛ ولكن هذا قد جار على نصيب جيله كله من الغرور .

وقد عجبت فى مستهل هذه الكلمة لغرور الإنسان ، وأنا أختمها بالتعجب من المرأة ؛ فقد رأيت أجمل امرأة أخذتها عينى فى حياتى ، تتأبط ذراع هذا النوريللا ، وتثنى إليه عياها الصبيح وهو ينضح بشرا وابتهاجا ، وفى عينيها وميض الحب ، وقد خيل إلى ، وأنا أنظر إليهما كأنها تشتهى أن تأكله !

وقد سلم على يومئذ بغير استخفاف ، وبغير احتفال كذلك . ولم يتمهل إلا ريثما يهز يدى ، ويسألنى عن صحتى ، كعادته كلما لقينى ، ولم يستعجل أيضا ، ولم أر على وجهه ولا فى سلوكه ما يدل على أنه مزهو بمصاحبة هذه الحسناء الفاتنة . فكأن هذا أمر عادى جدا ! فسبحان ربى القادر .

* * *

وعلى ذكر التعجب أقول إن عجبى لا ينقضى من عجز الإنسان وجهله . نعم استطاع أن يخترع اللاسلكى مثلا ، فهو يرسل الموجة من جهاز فتمضى فى الجو إلى أطراف المعمورة ، ويلتقطها جهاز آخر فتستحيل كلاما وغناء وموسيقى . وهذه الأجهزة مصنوعة من مواد يستخرجها الإنسان من الأرض التى يعيش عليها ، وهو أيضا مخلوق من طينها ، وفى بدنه كل عناصر هذه الأرض ، ومع ذلك لم يخطر له أن يحتال حتى يتخذ من بدنه جهازين للارسال والتلقى ، أو أن ينمى قدرته على ذلك ، فإن الناس يتفاهمون بالنظر إلى حد ما ، فماذا يمنع أن يتسع نطاق التفاهم حتى يشمل كل شيء ، فيستغنى الإنسان عن أداة اللغة التى قل أن يحسنها والتى هى عنوان العجز والقصور ؟

وأمر آخر : حطم الإنسان الذرة ، وهى لا ترى لا بالعين ولا بالمجهر . وأطلق بتحطيمها قوة مهولة مفزعة ، استخدمها أول ما استخدمها فى التدمير ، وسيستخدمها — إذا لم تقض عليه قبل ذلك — فى التعمير . وما من شك فى أن فى الإنسان طاقات محبوسة أو مستكنة أو راكدة لو أطلقت بحساب وقدر — حتى لا تعصف به — لبلغ من القوة والإقتدار درجة يعجز الخيال عن تصورها . ولكنه لا يفعل ، ولعل العلماء الذين حطموا الذرة لم يخطر لهم أن يعالجوا القيام بشيء من التحطيم فى جسم الإنسان ، وقد يحتاج ذلك إلى زمان طويل ، وقد يستغرق الاهتداء إلى وسيلة مأمونة لتحطيم ذرات الإنسان وإطلاق طاقاتها بقدر إلى قرن أو أكثر ، ولكن ما قرن إذا قيس إلى هذه الغاية التى تقلب الإنسان ماردا جبارا ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

من مـــاضي مصر
بين فرنسا وانجلترا
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

إن ما يحدث في الشرقين الأوسط والأدنى من الحادثات ، ويقع فيهما من تولية أو عزل للحكام والحكومات ، ويجرى من السياسات ، كل أولئك أمور يعتقد أناس كثيرون أنها جميعاً من تصرف الشرقيين وحدهم ، وأنها لا أثر فيها لنفوذ غيرهم أو لدس أو سياسة من سواهم ؛ لكنها أمور لا يستقل الشرقيون دائماً بالرأى فيها منذ ضعفت الدول الشرقية أو تخلفت ، بل يغلب أن تسببها وتلعب بها أيد صُنُع أجنبية ظاهرة أحياناً وتارة خفية

وهذا مقال وجيز جاء بمثال أو أمثلة في موضوعه ، فليس يزعم أنه يبين جميع ما وقع لمصر مع فرنسا وانجلترا من جراء تعاديهما ، وطمعهما وتنافسهما الاستعماري ؛ وإنما غرضه الإشارة الخفيفة إلى أثر ذلك التعادي والطمع والتنافس في بعض حوادث هذا القطر المتصل بالشرق الأدنى ، والمنسوب إلى البلاد العربية بخيلط في دم أهله ، ويلغتهم وتالد ثقافتهم .

***

طال العداء بين فرنسا وانجلترا دهراً تحاربتا فيه حرباً عواناً ، وخصوصاً لعهد حكومات الثورة الفرنسية الكبرى وامبراطورية نابليون ، بسبب المبادئ الثورية وأعمال أصحابها ، والسيادة الدولية والبحرية ، والتجارة والاستعمار . وقد ظلت انجلترا في تلك الأيام تؤلب الدول الأوربية على عدوتها اللدود ؛ ودخلت الحرب في الحلف الدولي الأول على فرنسا بعد أن أعدمت لويس السادس عشر سنة ١٧٩٣ ؛ ولم تكف انجلترا بعد انحلاله ، بل بقيت تحارب ، وألّبت الحلف الثاني الذي تحطم ، ثم انتهت حربه سنة ١٨٠٢ بمعاهدة أميان Amiens بينها وبين فرنسا .

فكانت انجلترا في حرب مستمرة مع فرنسا يوم نزلت حملة بونابرت بأبي قير عام ١٧٩٨ ، ويوم أبحر عائداً إلى فرنسا ، ثم تبعه الجنرال بليار Belliard بقسم من الحملة في ٧ من أغسطس عام ١٨٠١ ، فتبعهما الجنرال منو Menou في الشهر التالي بالقسم الباقي . وجاءت معاهدة اميان بعد ذلك بنحو نصف عام .

وكانت مصر على الدوام محسدة الدول التي سادت العالم القديم : لأنها كانت مركزه الجغرافي ، ولأنها تمكن من السيادة على البحر المتوسط . ومفتاح هذه السيادة هو على الأصح تونس لوقوعها في منتصف البحر وإشرافها على شقّيه الشرقي والغربي ، وعلى صقلية ومضيق مسّينا الفاصلين بينهما . بيد أن مصر أيضاً مشرفة على البحر المتوسط ومشرفة مع ذلك على البحر الأحمر ، وهي منفذ إلى الهند ووصلة بين أفريقية وآسية ، ومجاز إلى طرقها البرية . وقد اتجه نظر بونابرت إلى مصر منذ كان يحارب في إيطاليا حيث انتصر وعد انتصاره طالع سعده ، ومنها كتب إلى تالّيران Talleyrand سنة ١٧٩٧ : « لن نلبث مليّاً حتى نُحِسّ أنه ليس بد من أن نمتلك مصر لتحطيم انجلترا » . ولما عهدت إليه حكومته في الاستعداد لغزو الإنجليز شرع يستعد ؛ غير أنه وضع مشروعاً للاستيلاء على مصر ، وشرح لحكومته ما تجنيه فرنسا من الثمرات إذا هي استبدلته بغزو انجلترا فوكلت إليه قيادة الحملة وفتح القطر .

وملخص الأسباب التي شرحها بونابرت في إيثار مشروعه أن مصر أخصب أرض وثروتها الزراعية والحيوانية عظيمة ؛ وأنها كانت مُهْرى روما وهي يومئذ مُهرى القسطنطينية ، ومجمع القوافل الأفريقية والأسيوية ، ومحل تبادل المتاجر الشرقية والأوربية ؛ فإذا قامت فيها إدارة فرنسية خمسين عاماً زيد عدد سكانها زيادة كبيرة ، وتصبح سوقاً ومصرفاً لمصنوعات فرنسا ؛ وإن حلول الفرنسيين بمصر يضر انجلترا ، ويمكنهم من السيادة على البحر المتوسط فيوطد الامبراطورية العثمانية ؛ وإذا كان الانهيار مقدّراً عليها أخذت فرنسا أحسن حصة من سلبها ؛ فإذا استعمرت فرنسا مصر ، أو جعلتها مستودعاً للمتاجر أو موثباً تنقض منه على مؤسسات الإنجليز في الهند ، كان لنا أن تستيقن بأنها سترد التجارة الكبرى إلى طرقها الطبيعية فتصل إلى الثغور الفرنسية ، لأن فرنسا أحسن الدول الغربية الكبيرة موقعاً بالنسبة إلى مصر

***

نزلت الحملة الفرنسية بإسكندرية في أول يولية عام ١٧٩٨ ،

وأعلن الباب العالى الحرب على فرنسا فى ٤ من سبتمبر من العام نفسه ، وأخذ يعبئ جيشين أحدهما فى سورية ، والثانى فى رودس لطرد الحملة . فرأى بونابرت أن نزول جيش رودس من البحر لا يتيسر إلا فى الصيف ، فآثر أن يفاجئ الجيش البرى قبل أن يتم احتشاده ليشتته فى سورية ويفتحها كما فتح مصر ؛ ومتى يقهر الترك ويجمع محاربين فى صفه بالتجنيد من المسيحيين المنتشرين فى تلك البلاد ، ومن الدروز وغيرهم تمتد الحركة إلى سائر العرب ويتسهل له إصلاح العلاقات بين فرنسا والباب العالى ، ثم يجتاز الصحراء زاحفاً إلى الهند . لكنه رجع إلى مصر مضطراً بسبب صبر عكا على حصاره وتفشى الطاعون فى عسكره وغير ذلك .

* * *

وجلت الحملة الفرنسية عن مصر ، لكن بونابرت المستمد بجده وفرنسا التى اعتزت به ، فرنسا التى ما فتئت تدافع عن مصالحها فى الشرق لم ييأسا من إمكان فتح هذا القطر ثانية ، بل أرادا العمل على إحياء النفوذ الفرنسى فيه ريثما تتاح فرصة الاستيلاء عليه.

ففى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية وثيقتان[1] : إحداهما مذكرة بمشروع لاستقلال مصر منسوب إلى المعلم يعقوب الذى ورد ذكره فى تاريخ الجبرتى — وليس فى كلام المؤرخ إشارة ما إلى أنه عرف شيئاً يتعلق بهذا المشروع ؛ والوثيقة الثانية كتاب من قائد سفينة حربية انجليزية أرسل معه المذكرة إلى حكومته عقيب نقله يعقوب من مصر . ولهاتين الوثيقتين علاقة بعمل فرنسا على إحياء نفوذها فى مصر .

فقد وجد رؤساء حملة بونابرت أن المعلم يعقوب رجل حرب وإدارة على ذكاء ومكر ، فألحقوه بجيش الجنرال دزِه Desaice مديراً للتموين ، فأثبت إخلاصه لهم وشجاعته . وبعد هزيمة المماليك فى الصعيد رجع فى أسيوط إلى عيشة الثراء بجوار قائده ، وعاشره هو وأركان الحرب من ضباطه وبعض أعضاء اللجنة العلمية الفرنسية ، وكانت المحادثات بندى القائد شائقة وسامية المعانى فى أكثر الأحيان . فلا غرو من أن تكون أرسخت الأفكار الجديدة فى أعماق ذهن المعلم . ثم عهد إليه كليبر Kleber فى تنظيم المالية المصرية ؛ ثم جعله رئيساً لفرقة عسكرية قبطية ؛ ورقاه خلف كليبر فى القيادة العامة إلى رتبة اللواء (جنرال) وعينه مساعداً للجنرال بليار فى دفع الجيوش الانجليزية والتركية عن القاهرة ، فعد هو وفرقته القبطية — عند استسلام العاصمة فى ١٧ من يونية عام ١٨٠١ — من الجند الموكول أمرهم إلى بليار وأبحر مع هذا القسم من جيش الحملة إلى فرنسا على تلك السفينة الحربية الانجليزية .

قال الجنرال يعقوب لقائد السفينة ، فى حديث لم يحضره سوى رجل من أصل فرنسى اسمه لسكرى Lascaris جاء من مالطة مع الحملة التى استولت عليها فى الطريق إلى مصر : إنه يحضر مشروعاً لاستقلال مصر يريد من القائد أن يبلغه عنه سراً إلى الحكومة البريطانية . وخلاصته أن مصر إذا استقلت فإنما تكون فى حكم الخاضعة لانجلترا سيدة البحار ، وان تكون أبداً إلا دولة زراعية غنية بأرضها الخصبة وبتجارة افريقية الوسطى ؛ وهذه الفوائد تغنى الأمة التى لها دائماً أعظم مصلحة فى تجارة مصر وبحارها ، بسبب الهند ؛ وهذا الاستقلال لا يكون انقلاباً أحدثه نور العقل أو قلق الخواطر بمبادئ فلسفية متناقضة ، بل يكون تغيراً سببه عمل قوة قاهرة فى حال أناس هادئين جهلاء ، لا يعرفون على التقريب سوى النقمة والخوف ؛ فلا يكون فى استطاعة المصريين أن يحموا استقلالهم من الأوربيين قبل زمن مديد ، حين تنتظم القوة الأهلية وتصبح مهيبة ؛ أما حمايته من الترك أو المماليك فإن الدول الأوربية تستطيع أن تحرمهم كل اعتداء على مصر ، ويمكن أن يستأجر المصريون فرقة أجنبية مساعدة تجمع إثنى عشر ألف رجل أو خمسة عشر ألفاً ، فتكون نواة الجيش المصرى وتكفى لإيقاف الترك فى الصحراء وإبادة المماليك داخل مصر ؛ ومصر منقسمة طوائف وشيماً يسهل توجيهها إلى الاختلاف لتتوازن ؛ وهو ومن معه من الأقباط وفد متصل بها جميعاً ، مفوض إليه من وجهاء الإخوان الأحرار أن يفاوض الدول فى الاستقلال (ولو فوضه أحد فى شيء من نحو ذلك لما خفى جلة الأمر على مثل الجبرتى) ؛ وغرضه أن يفاوض بطريقة تجعل فرنسا هى البادئة بطرح المشروع على انجلترا إذا أيقنت هذه الدولة بفوائده السياسية فعزمت على تأييده عند عودة السلام العام إلى أوربا فلا يتعرض الوفد لرفض مشروعه بسبب التنافر بين هاتين الدولتين الأوربيتين ؛

(١) وزارة الخارجية ٧٨ ، مجلد ٣٨ (F. O. 78, vol. 38) .

أو حذر أن يكون حيلة من الجمهورية الفرنسية .

لم يكن الدين حائلا بين الفرنسيين والقبط ولم يكن بد من أن يحدث ضم يعقوب إلى الجيش الفرنسي ، مرات ثلاثة أعوام ، آثاراً عميقة في نفسه . فكان له أن يتوقع المكافأة الثمينة من بونابرت ، ولاسيما بعد إذ أصبح القنصل الأول في حكومة القنصلية وهو الذي لم يكن ليغفل عن الجزاء السخي على مثل ارتياح المعلم إلى خدمة الفرنسيين في جميع الأحوال ، واستسلامه لإرادتهم كل الاستسلام حتى جعلوه جنرالا فرنسياً . غير أن المعلم مات على السفينة الانجليزية عقيب الإفضاء بسره ، فكتب لسكرى المشار إليه آنفاً مذكرة بالمشروع هي التي أرسلها قائد السفينة مع كتابه إلى الحكومة الانجليزية . وكان يعقوب قبيل موته قد أبدى رغبته في أن يدفن بجانب (دزه) حباً فيه ، فلم تلق جثته في البحر بل حفظت في برميل روم Rhum إلى أن دفنت في مرسيليا.

وواضح من نص الوثيقتين برمته ، ومن سيرة صاحب المشروع في زمانه ومكانه ، أن فكرة هذا الاستقلال وليدة السياسة العليا ؛ وأن المعلم يعقوب تبناها تحت رعاية الحملة الفرنسية . ولو امتد بالجنرال يعقوب زمنه لأيدت فرنسا مشروع هذا القبطي الوجيه الثري ، عند عقد معاهدة اميان ، ليخدم مصلحتها بنفوذه في مصر إذ كان أحد رؤساء طائفته وقد صيّروه شخصية كبيرة الشأن . لكنه مات فلم يبق في الفرقة القبطية من يصلح للحلول محله والمفاوضة في مشروعه .

* * *

لما عاد بونابرت من مصر إلى فرنسا وتولى رياسة الحكومة القنصلية أرسل ماتيو ده لسبس Mathieu قنصلا عاما إلى مصر ، وذلك في سنة ١٨٠٤ من أيام القلق التي كان جلاء الجيش الفرنسي عن القطر تركه فيها لنفوذ المماليك والفوضى . وكان من شأن المهمة الحقيقية المعينة لماتيو أن تعرضه للمخاطر في بهرة هذه الفوضى ، إذ كانت المهمة هي إعادة النفوذ الفرنسي إلى حاله السابقة ، وقد أداها بنجاح باهر : فإن البيانات والأوامر السرية التي أصدرها إليه تاليران المشهور ، وزير الخارجية الفرنسية يومئذ ، أوجبت عليه أن يبحث في الجيش التركي الذي حارب الفرنسيين عن رجل مقدام ذي كفاية للحلول على المماليك ؛ فاهتدى ماتيو بفراسة ذات بصيرة إلى محمد علي (المغفور له محمد علي باشا الكبير) ، وفاز بصداقته ، وساعده مساعدة فعالة في سبيل علوه ؛ فلم يلبث محمد علي أن أصبح سيد البلاد وجعل المصريين ينادون به والياً على مصر ، ثم أباد المماليك — كما كان يحدث لو نفذ مشروع يعقوب .

ومشهور أن فرنسا أيدت المساعي التي نال بها محمد علي فرمان الولاية عام ١٨٠٥ ؛ وقد جاءه بعد ذلك فرمان بنقله والياً على سلانيك ، لأن الحكومة البريطانية طلبت من الباب العالي أن يعيد السلطة إلى المماليك ضامنة له أمانة محمد بك الألفي — الذي كان الانجليز يؤيدونه إذ وعدهم وعوداً تعرض مستقبل مصر للخطر ، منها أنه سوف ينزل لهم عن الثغور المصرية الكبيرة . ثم نجحت مساعي فرنسا في استنبول ففاز محمد علي بفرمان أعاده إلى ولاية مصر من غير أن يبارحها . لكن الانجليز لم يرقهم نجاحه الملائم لسياسة فرنسا ونفوذها ، فأرسلوا حملة على مصر : وكانت الخطة لدفع هذه الحملة الخائبة عن الاسكندرية من وضع دروفتي Drovetti قنصل فرنسا في هذا الثغر .

* * *

استتب حكم محمد علي وغزا الشام — بعد أن قهر الوهابيين بنحو خمسة عشر عاماً . وكان لويس فيليب ، ملك فرنسا ، وحكومته والرأي العام الفرنسي ، شديدي الرغبة في أن ينفذ والي مصر ما عزم عليه وأن يوطد سلطته في الشرق إلى أقصى حدود الإمكان ؛ فلما خرج أحمد باشا القبطان بالأسطول العثماني من الدردنيل في سنة ١٨٣٩ ليسلمه إليه حقداً منه على عدوه الشخصي خسرو باشا ، الصدر الأعظم ، كان أمير البحر لالند Lalande يسد بالأسطول الفرنسي منفذ المضيق إلى البحر المتوسط ، فلم يبذل أي جهد ليمنع الأسطول العثماني من الخروج تنفيذا للرغبة الدولية الأوربية مع علمه بنية أحمد باشا ، بل أعانه على خدع الانجليز والتخلص إلى مصر . لكن انجلترا خشيت عواقب النصر الذي حازه محمد علي الكبير فحالت دون غرضه من توحيد الشرق العربي تحت حكمه وإن أيدته فرنسا في المفاوضات الدولية الأوربية حتى كادت تحارب من أجله ، بل حرصا على نفوذ سياستها . وقد كتب بالمرستون ، وزير الخارجية البريطانية ، في ٤ من مارس عام ١٨٤٠ إلى جيزو ، رئيس الوزارة الفرنسية : « أما كانت

فرنسا تسر لو رأت فى مصر وسورية دولة جديدة مستقلة تؤسس فيهما وتكاد تكون من إنشائها فتصير بالضرورة حليفتها؟ لكم الوصاية على الجزائر، فاذا يبقى يومئذ بينكم وبين حليفتكم مصر؟ هاتان الدولتان المسكينتان تونس وطرابلس، وهما تكادان لا تكونان شيئا. وهكذا يصبح ساحل أفريقية كله وقسم من ساحل آسية على البحر المتوسط، من مراكش إلى خليج الاسكندرونة، فى قبضة يدكم وتحت نفوذكم. وهذا محال أن يكون من سبيلنا »

* * *

ضمن ماتيو بجرأته فيما ابتدأ به عمله السياسى صداقة محمد على العظيم، ووطد فى مصر نفوذ فرنسا لمدة مديدة، ومهد من حيث لا يدرى لابنه فردينان طريقا قصدا إلى الاذن له فى إنشاء قناة السويس: فإن صداقة الوالى، بعد إذ وصل إلى الحكم بمواهبه الفطرية وبتأييد من ماتيو، كانت صداقة مضمونة بادىء بدء لفرديناند. وقد أكد الوالى أمر ذلك التأييد من الأب وهذه الصداقة للابن تأكيدا علنيا يوم كان فى سورية بين قواده وحاشيته ورأى فيه فرديناند أول مرة فقال له: « إن والدك هو الذى جعلنى ما أنا اليوم. فاذكر أنك تستطيع دائما أن تعتمد على ». ومن صداقة الوالى نشأت صداقة ابنه سعيد باشا لفرديناند، ولولاها لكان من الممكن جدا أن يخفق فى أمر القناة. وليس شك فى أن أحوال البيئة التى ظهر فيها محمد على، ومنطق التاريخ فى زمانه وتصرفه بسياسة أثبت حكمتها علو شأنه، أمور تؤيد هذه الحقائق. وإذا قال التاريخ بوقوع إرشاد له وإسعاد فإن هذا القول ليس يصغر من جلال عبقرية سمت بصاحبها إلى أوج سودده ومجده: إذ أنقذ مصر من الفوضى وأحياها، ومنحها ملكا واسعا وعرشاً زعزع العرش العثمانى المجيد، ولم يثبت أمامه سوى إجماع الدول العظمى.

* * *

ولما وقعت الذابح بسورية، فى ٩ من يوليه عام ١٨٦٠، رفع الأمير عبد القادر الجزائرى العلم الفرنسى على داره بدمشق، وحمى الفرنسيين هو ومن معه من أبناء الجزائر، وأعاد النظام إلى المدينة فنحه نابليون الثالث الوشاح الأكبر لجوقة الشرف، وعظم أمل الفرنسيين فى الأمير حتى طلبت صحفهم إنشاء امبراطورية شرقية تضم جميع السكان العرب فى سورية ولبنان والعراق وشبه جزيرة العرب. وهذا المشروع الفرنسى لم يعقبه أى إجراء فيه. لكن الإنجليز وجسوا بسبب النفوذ الذى أصبح يومئذ للأمير الجزائرى فى سورية فراقبوا أعماله ومسالكه مراقبة دقيقة؛ وكان شأنهم مع أولاده أن شغل أولئك الإنجليز واجبهم منذ أصبح الأمير رمز المصلحة الفرنسية فى الشرق حتى اجتهدوا، عند انتهاء الحرب العالمية الأولى، فى الحط من سمعة أمراء الجزائر لإبعادهم عن سورية حيث كانوا عقبة أمام السياسة الإنجليزية.

* * *

وكان من المشروط فى عقد الشركة التى حفرت قناة السويس أن تملك جميع الأراضى البور التى تحييها فى جانب القناة. وكانت نية دهلسبس أن يروى خمسة عشر ألف فدان من الصحراء فى جانبها الغربى بمياه ترعة من النيل، وأن يستميل بدو سينا إلى سكناها؛ وقصد أن يوجد الثقة فى قلوبهم بدعوته الأمير عبد القادر الجزائرى، عام ١٨٦٧ إلى زيارة الأعمال الجارية يومئذ فى القناة، وبتمليكه خمسمائة فدان فى بئر بلاح جنوبى نفيشه. وقد شرع الأمير يحث البدو على التجمع حول منشآت الشركة عازما على إسكان واحد من أبنائه بينهم ليعيش معهم، ساعيا بوجاهته لإصابة الفرض. فأوجس بالمرستون خيفة من هذا المشروع الذى يلائم مصلحة الشركة ويوائم السياسة الفرنسية فى آن معا: إذ رأى فيه نواة دويلة عربية تابعة لفرنسا قد تنشأ فى برزخ السويس وقد تسد ذات يوم طريق الهند. فتفادت انجلترا من هذا الخطر البعيد باستعانتها بنخوة الخديو إسماعيل، الذى كان يشغله ما حاز الأمير عبد القادر من الشهرة المتناهية؛ فطلب الخديو من دهلسبس أن يعدل عن مشروعه. ولقد بحث الإنجليز يومئذ عن سبب يمكنهم من إيجاد طريق حربى يسلكونه إلى الهند رأسا إن أغلقت دونهم قناة السويس، وينافسها فى كل وقت؛ فكان مشروعهم هو حفر قناة من حيفا إلى البحر الميت ومنه إلى العقبة.

ودام تنافس الفرنسيين والإنجليز مؤثرا فى شؤون مصر، آخذا فى الضعف رويدا حتى انتهى بالإتفاق الودى عام ١٩٠٤

محمد توحيد السلحدار

في إرشـــاد الأريب
إلى معرفة الاديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ١٧ —

ج ١ ص ١٨١ :

إذا ما الفكر ولد حسن لفظ — وأسلمه الوجود إلى العيان
ووشـاه فنمنمه بيان — فصيح في المقال بلا لسان
ترى حلل البيان منشرات — تجلى بينها حلل المعاني

قلت : (تجلى بينها صور المعاني) كما روى أبو الفرج . وفي (أغانيه) : « فنمنمه مُسدد فصيح » وأسد في القول أصاب السداد ، والشعر لإبراهيم بن العباس الصولي

* * *

ج ١٩ ص ٢٠٩ : حدث أبو عبيدة أن يونس النحوي سئل عن جرير والفرزدق والأخطل أيهم أشعر ؟ فقال : أجمعت العلماء على الأخطل . قال أبو عبيدة : فقلت لرجل إلى جنبه : سله : فمن هؤلاء العلماء ؟ فسأله فقال : هم ميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، وابن أبي إسحاق الحضرمي ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفي . هؤلاء طرقوا الكلام وماثوه موثا لا كمن تحكون عنهم لاهم بديون ولاهم نحويون .

وجاء في الشرح : (ماثوه موثا) هنا كناية عن بحثهم المتواصل واستقرائهم المتتابع كمن ماث الشيء بالشيء إذا خلطه بحيث لا يتميز أحدهما من الآخر .

قلت : (ماشوه ميشا) في الأساس : ومن المجاز : وتقول : هم نفشوا الكلام وماشوه وطرقوه للنحارير في العربية .

في التاج : ماش القطن يميشه ميشا : زبده بعد الحلج . وزُبد القطن نفش وجُود حتى يصلح لأن يغزل . وفي اللسان : طرق النجاد الصوف يطرقه طرقا ضربه ، واسم ذلك العود الذي يضرب به المطرقة .

لميمون الأقرن وعنبسة الفيل وسائر من ذكرهم يونس بن حبيب البصري النحوي أن يقدموا ويؤخروا ، ويملوا وينزلوا « فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما (بين الفرزدق وجرير) وبين الأخطل ؛ لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر ، ولا له مثل مالهما من فنونه » كما قال أبو الفرج في كتابه ، وقد أوردت قضاءه في مقالاتي (خليل مردم بك وكتابه في الشاعر الفرزدق) في (الرسالة الغراء) في سنتها السابعة ، وبينت هناك ما بينت . وهذا قول لم أروه في تلك المقالات وهو للأديب العظيم أبي بكر محمد بن يحيي الصولي في كتابه الفائق (أخبار أبي تمام) :

كنت عملت (أخبار الفرزدق) وبدأت (به) وفي نيتي عمل أخبار جرير والأخطل بعده ، وإنما بدأت بالفرزدق لقوة أسر كلامه ، وكثرة معانيه ، وجميل مذهبه ، ولأنه يتقدم عندي الإثنين من طبقته في شعره ، أعني جريرا والأخطل ، ولا أعيب من يقدم عليه إذ كنا نجد أئمة من العلماء لهم فيهم آراء مختلفة ، وتقديم لبعضهم على بعض ، ولكنني في حيز من يقدم الفرزدق . وابتدأت في عمل أخبار جرير ، فبلغني أن قوما تضمنوا عملها خلافا علي وكياداً إلى ، فأمسكت عن إتمامها امتحانا لصدقهم ، ثاث بعض وبقي آخرون ، ولم تعمل حتى الساعة ...

* * *

ج ٢ ص ٣٦٩ :

لو دام لي في الورى خل وعاتقة — لما حفلت بذي قربي ولارحم
ولا بكّرت إلى خُلْق لنائله — ولا التفت إلى شيء من النعم

قلت : (لما حفَلت) حفل يحفل (ولا بكّرت إلى خلق لنائله) بكر إلى الشيء — من باب قعد — أتاه بكرة أو في أي وقت كان ، وبكر إلى الشيء كفرح عجل كما في التاج . وخلق اسم ومصدر كما قال سيبويه في (الكتاب) أو أصله مصدر كما في الصحاح . وخلق هنا مثله في قول المتنبي :

ولا تشـكُ إلى خلق فتشمته — شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

والعاتقة في الشعر — وهو لجحظة البرمكي — هي الخمر .. والمعروف خمر عاتق وعتيقة ومعتقة وعتاق . قال حسان (رضي الله عنه) :

تبلت فؤادك في المنام خريدة — تسقي الضجيع ببارد بسام

كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيح مدام

* * *

ج ٩ ص ١٧٨ : فكم أهل هدنه — نصر الله عزائمها — بعد الضلال ، وحر استنقذته من حبائل الأقلال ، ومرهق خففت عنه وطأة الزمن المتثاقل ، وطريد بوأته من حرمها أمنع المعاقل .

منازل عز لو يحل ابن مزنة بها لسلا عماله من منازل

وجاء في الشرح : ابن مزنة المطر . قلت : (فكم تائه أو حائر أو ضال أو ضليل أو مضلل هدته بعد الضلال) ؛ وابن مزنة هو الهلال .

في الصحاح : ويقال للهلال : ابن مزنة قال :

كأن ابن مزنتها جانحا فسيط لدى الأفق من خنصر

وقيل للهلال ابن مزنة لأنه يخرج من خلال السحاب ، حكى ذلك عن ثعلب كما في التاج . ونسب البيت في اللسان والتاج إلى عمرو بن قميئة . والفسيط هو القلامة ، في الأساس : ما لفلان مقدار فسيط ، وأنشد يعقوب[1] : كأن ابن مزنتها البيت .

* * *

ج ١٥ ص ٢٠٧ : لأبي على المنطقي :

في البرق لي شاغل عن لمة البرق يدا وكان متى ما يبد لي يشق

منفرا سرب نوم عن محاجره كأنما اشتق معناه من الأرق

أخو ثنايا التي بالقلب مذ ظعنت أضعاف ما وشاحها من القلق

ما كان يسرق من حرز الجفون كرى

لو أنه من لماها غير مسترق

وجاء في الشرح : البرق الأول مكان والثاني برق السحاب .

قلت : (في البرق لي شاغل عن لمة البُرَق) (لو أنه من لماها غير مسترق) والبرق الأول هو البرق المعروف واللفظة الثانية هي جمع برقة .

في اللسان : اللمعة الموضع الذي يكثر فيه الخلى ، ولا يقال لها لمعة حتى تبيض ، وقيل : لا تكون اللمعة إلا من الطريفة والصليان إذا يبسا ، تقول العرب : وقعنا في لمعة من نصي وصليان أي في بقعة منها ذات وضح لما نبت فيها من النصي وتجمع لمعا .

والبرقة (وجمعها برق) ذات حجارة وتراب ، وحجارتها الغالب عليها البياض ، وفيها حجارة حمر وسود ، والتراب أبيض وأعفر وهو يبرق لك بلون حجارتها وترابها ، وإنما برقها اختلاف ألوانها وتنبت أسنادها وظهورها البقل والشجر نباتا كثيرا ، يكون إلى جنبها الروض أحيانا .

ومما رواه أبو الفرج في هذا البرق الشائق قول أبي قطيفة :

إذا برقت نحو الحجاز سحابة دعا الشوق مني برقها المتيامن

وقول ابن ميادة :

أرقت لبرق لا يفتر لامعه بشهب الربى والليل قد نام هاجعه

أرقت له من بعد ما نام صحبتي وأعجبني إيماضه وتتابعه

وقول إبراهيم بن اليزيدي :

ماذا بقلبي من أليم الخفق إذا رأيت لمعان البرق

من قبل الأردن أو دمشق لأن من أهوى بذاك الأفق

وروت هذين البيتين (نهاية الأرب) .

* * *

ج ٢ ص ٧٣ : وقال (الصابي) في غلام له اسمه رشد أسود :

قد قال رشد وهو أسود للذى ببياضه يعلو علو الخائن[1]

ما فخرخدك بالبياض وهل ترى أن قد أفدت به مزيد محاسن

ولو أن مني فيه خالا زانه ولو أن منه في خالا شانني

وجاء في الشرح : ويزوى باليتيمة استعلى علو مباين .

قلت : (ببياضه استعلى علو الخائن) في المقامة الثامنة والثلاثين المروية للحريري : قال فقربه الوالي لبيانه الفاتن ، حتى أحسله مقعد الخائن .

في (نهاية الأرب) : قال بشار وأجاد :

يكون الخال في خدنقي فيكسبه الملاحة والجمالا

ويونقه لأعين مبصريه فكيف إذا رأيت اللون خالا

في (الوفيات) هذا الخبر البارع في السواد :

قال إبراهيم بن المهدى : قال لي المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عني : أنت الخليفة الأسود ؟ فقلت يا أمير المؤمنين ، أنا الذي مننت عليه بالعفو ، وقد قال عبد بني الحسحاس :

إن كنت عبدا فنفسي حرة كرما أو أسود الخلق إني أبيض الخلق

---

(١) ابن السكيت .

(١) في رواية : قد قال يمن .

فقال لى : ياعم ، أخرجك الهزل إلى الجد ، وأنشد يقول :

ليس يُزرى السواد بالرجل الشهم (م) ولا بالفتى الأديب الأريب
إن يكن للسواد فيك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبى!

قلت : — ولا أقول إلا الحق — : إن السواد عند الله وعند الطبيعة والحقيقة هو كالبياض ، والبياض ند السواد ، والأحمر أخو الأصفر ، والبيئة — يا أخا العرب — هى التى قد لونت ، وهى التى قد شكلت ونوعت ، وصورت ما صورت : فلا يروق[1] ذو لون على ذى لون ، وليس فى الدنيا عبد وحر ، ولن يشين المرء لونه — يا أيها النربى — لكنه يشينه تلونه ...

فى (أساس البلاغة) لجار الله : ورجل متلون : مختلف الأخلاق .

* * *

ج ٧ ص ٢٥١ : أبو محمد القاسم بن أحمد الأندلسى قال : وجدت فى مسائل نحوية تنسب إلى ابن جنى قال : لم أسمع لأبى على (الفارسى) شعراً قط إلى أن دخل إليه فى بعض الأيام رجل من الشعراء ، فجرى ذكر الشعر ، فقال أبو على : إنى لأغبطكم على قول هذا الشعر ، فإن خاطرى لا يواتينى[2] على قوله مع تحقق للعلوم[3] التى هى من موارده . فقال له ذلك الرجل : فما قلت قط منه شيئاً ألبتة ؟ فقال : ما أعهد لى شعراً[3] إلا ثلاثة أبيات قلتها فى الشيب ، وهى قولى :

خضبت الشيب لما كان عيباً وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل ولا عيباً خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميا فصيرت الخضاب له عقابا[4]

فاستحسناها وكتبناها عنه ، أو كما قال ، لأنى كتبتها عن المفاوهة ، ولم أنقل ألفاظها .

(١) راق عليه : تقدمه وعلاه فضلا ، قال ابن الرقيات :
راقت على البيض الحسا ت بحسنها وبهائها

(٢) قلت : فى (الوفيات) لا يوافقنى . فى التاج : آتيته على ذلك الأمر إذا وافقته وطاوعته والعامة تقول وآتيته كما فى الصحاح وقيل : هى لغة لأهل اليمن جعلوها واوا على تخفيف الهمزة ومنه الحديث : خير النساء المواتية لزوجها .

(٣) فى الوفيات (مع تحقيق العلوم) (ما أعلم أن لى شعراً) .

(٤) فى طبعة الإرشاد والوفيات (ذميا) وعندى أن أبا على قال (دميا) .

وجاء فى الشرح : كانت (المفاوهة) فى الأصل «المفاوضة» .

قلت : الأصل صحيح ، ومفاوضة العلماء محادثتهم ومذاكرتهم ، والمفاوهة : المقاولة والمناطقة ، فهى تحكى المحادثة والمذاكرة .

وقد ضبطت (ألبتة) فى هذا الخبر وفى مواضع أخر فى الكتاب بهمزة مقطوعة أو بألف القطع ، وقد وجدتها فى البخارى والكامل وكتاب سيبويه والصحاح وغير ذلك بألف الوصل ، ولم أعثر على نص للأئمة القدماء فيها ، فمن وجده تقرب إلى العلم بنشره فى (الرسالة) مشكوراً . وهذا ما قاله التاج :

(ولا أفعله البتة) بقطع الهمزة كما فى نسختنا ، وضبط فى الصحاح بوصلها ، ونقل شيخنا عن الدماميني فى شرح التسهيل : زعم فى اللباب أنه سمع فى البتة قطع الهمزة ، وقال شارحه فى العباب : إنه المسموع . قال البدر : ولا أعرف ذلك من جهة غيرها ، وبالغ فى رده وتعقبه ، وتصدى لذلك أيضاً عبد الملك العصامى فى حاشيته على شرح القطر للمصنف .

قال ابن خلكان : كنت مرة رأيت فى المنام سنة (٦٤٨) وأنا يومئذ بمدينة القاهرة كأننى قد خرجت إلى قليوب ، ودخلت إلى مشهد بها فوجدته شعثاً ، وهو عمارة قديمة ، ورأيت به ثلاثة أشخاص مقيمين مجاورين ، فسألتهم عن المشهد وأنا متعجب لحسن بنائه وإتقان تشييده : ترى هذا عمارة من ؟ فقالوا : لا نعلم ثم قال أحدهم : إن الشيخ أبا على الفارسى جاور فى هذا المشهد سنين عديدة ، وتفاوضنا فى حديثه ، فقال : وله مع فضائله شعر حسن ، فقلت له : ما وقفت له على شعر ، فقال : أنا أنشدك من شعره ، ثم أنشدنى بصوت رقيق إلى غاية ثلاثة أبيات ، واستيقظت فى أثر الإنشاد ، ولذة صوته فى سمعى ، وعلق على خاطرى منها البيت الأخير وهو :

الناس فى الخير لا يرضون عن أحد
فكيف ظنك سيموا الشر أو ساموا

* * *

ج ١٨ ص ٢٨٦ : قال (الحميدى الحافظ المؤرخ الأديب) :

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقالْ
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حالْ

من محاسن التشريع الاسلامي

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

— ٤ —

حرصه على الأخلاق والفضائل :

من خصائص الشريعة الإسلامية التي امتازت بها على الشرائع الوضعية كلها أنها قامت على الأخلاق المرضية ، والفضائل المرعيــة ، وخشية الله ، ومحاسبة الوجدان والضمير ، في كل ما يصدر عن الإنسان ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاَّ تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى » ، وقال صلوات الله وسلامه عليه في الحديث المتفق عليــه : « إنكم تختصمون إليّ ، ولعــل بعضكم أن يكون ألحن[1] بحجته من بعض فأقضى بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار[1] » ، ويجتهد عمر رضى الله عنه في إبعاد الناس عما يغرس الأحقاد والإحن في النفوس ، فيقول : « ردّوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن » ، ويشدد الرسول صلى الله عليه وسلم في النكير على من يخادع المسلمين ويغشهم ، فيقول : « من غشّنا فليس منا » كما يقول صلوات الله عليه « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع إمامه ، لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها رضى ، وإن لم يعطه منها سخط ، ورجل أقام سلعته بعد العصر ، فقال : والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل — ثم قرأ — إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيــامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » .

وليست قوانين أفلاطون ، ولا الشرائع الرومانيــة ، ولا القوانين الغربية الحديثــة بمستطيعة أن تجارى الشريعة

(١) أعرف بالحجة وأفطن لها .

(١) الحديث ورد بهذا النص في الطرق الحكمية .

قلت : (من قيل وقال) (أو إصلاح حال)

***

ج ١٩ ص ٢٤٢ :

كأن القلب ليلة قيــل يغدى بليلى العــــامرية أو يراحُ
قطاة غرها شرك فبــاتت تجــاذبه وقد علق الجناح[1]

قلت : (عزها شرك) كما روى الكامل والحماسة والأغاني وفسر التبريزي[2] . وقد نسب الشعر في الإرشاد والحماسة إلى نُصيب بن رباح . وقال صاحب الكامل : أحسبه توبة ، وقال أبو الحسن الأخفش : يقال : إنه لمجنون بني عامر وهو الصواب ، وعزى في الأغاني في موضعين إلى (المجنون) فضاع — والحالة هذه — قائله .

مما قيل في (مجنون ليلى) في (الأغاني) :

عن المدائني عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً ؟ قال : أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين ! إنهم لكثير ؛ فقلت ليس هؤلاء أعنى ، إنمــا أعنى مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيهات ، بنو عامر أغلظ أكباداً من ذاك ، إنما يكون هذا في هــذه اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصعلة رءوسها ، فأما نزار فلا .

عن أيوب بن عباية أن فتى من بني مروان كان يهوى امرأة منهم فيقول فيها الشعر ، وينسبه إلى المجنون ، وإنه عمل له أخباراً ، وأضاف إليها ذلك الشعر ، فحمله الناس وزادوا فيه .

(١) في الكامل : تعالجه وقد غلق الجناح ، وروى تجاذبه فهذا غاية الاضطراب ، وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار .

(٢) قال : (غرها) في موضع الصفة لقطاة ، يريد غلبها ، وانتصب ليلة على الظرف مما دل عليه (كأن القلب) من التشبيه ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لقيل لأن ما بعده مضاف إليه ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف ، وقوله (تجاذبه) المفاعلة تكون في الأكثر من اثنين ، وإنما جاز ذلك لأنه جعل منع الشرك للقطاة من التخلص جذبا منه .

الإسلامية فى هذا السمو الخلق الذى بنيت عليه جميع التصرفات والمعاملات ، وما يصدر عن الإنسان من قول أو عمل .

— ٥ —

اقتصار تشريعه التفصيلى على الأمور الثابتة التى لا تختلف باختلاف الأمم والعصور ، أما الحوادث الجزئية ، والأحكام الفرعية التى تختلف باختلاف الأحوال والأمم فإنه لم يتناولها إلا بقواعد كلية ، ومقاصد عامة ، ليترك الباب مفتوحاً لأهل الاجتهاد من كل أمة ، وفى أى عصر ، ليستنبطوا من الأحكام ما يحقق مصالح العباد ، ويتفق مع حاجاتهم .

لذلك كان من خصائص هذه الشريعة التى امتازت بها على سائر الشرائع أنها قائمة على دعامة الاجتهاد ، من لدن أول مجتهد فى الإسلام ، وأعظم مشرع ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى مجتهدى الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من العلماء المجتهدين فى كل عصر .

هذا الاجتهاد — فيما لا نص فيه — هو الذى يكفل تجددها على مدى الأيام ، ومسايرتها لتطورات الأمم والشعوب ، ويضمن قدرتها على وضع الأحكام لما يجدّ من الأحداث والوقائع ، وضروب المعاملات ، بل هو سر خلودها ، ودوامها وبقائها على وجه الدهر ، صالحة لكل زمان ومكان ، وليس ذلك يبدع ولا يعجب ، فإن أحكام الشريعة معللة ، لها أسرار وحكم ومنافع ، والنصوص معقولة المعنى .

وقد تضافرت الأدلة الشرعية ، والنصوص الدينية على أن الإسلام شرع الاجتهاد ودعا إليه فى وضع الأحكام عند عدم وجود النص ، فمن ذلك .

١ — أن النبى صلى الله عليه وسلم أقر معاذ بن جبل على اجتهاده برأيه فيما لم يجد فيه نصا عن الله ورسوله ، فإنه عليه الصلاة والسلام ، لما بعثه إلى اليمن — قال له : « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بما فى كتاب الله ، قال فإن لم يكن فى كتاب الله ، قال فبسنة رسول الله ، قال فإن لم يكن فى سنة رسول الله ، قال أجتهد رأيى لا آلو » ، قال معاذ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ، ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله » .

٢ — ما ثبت من أقوال بعض الصحابة من إقرار الاجتهاد بالرأى والقياس ، فمن ذلك ما جاء فى رسالة عمر بن الخطاب فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى « الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق » .

٣ — ما ثبت من أن كثيراً من الصحابة كانوا يجتهدون فى النوازل ، ويقيسون بعض الأحكام على بعض ، ويعتبرون النظير بنظيره ، ويرون استعمال الرأى عند عدم وجود النص ، ولعل عمر كان أظهرهم وأجرأهم فى هذا الباب ، متى بان له وجه الحق فيه ، فمن ذلك أنه رفعت إليه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليلها ، فتردد عمر ، هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال له على أرأيت لو أن نفراً اشتركوا فى سرقة جزور ، فأخذ هذا عضواً ، وهذا عضواً ، أ كنت قاطعهم ؟ قال نعم ، قال فكذلك ، فعمل عمر برأيه ، وكتب إلى عامله أن اقتلها[1] ، وروى عن عمر أيضاً أنه لم يقطع يد السارق فى عام المجاعة ، وأوقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا ، وقال إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه .

كذلك ثبت اجتهاد بعض الصحابة فى حيـــاة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فى كثير من الأحكام ، فلم يلمهم ولم يعنفهم ، فقد أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلاها فى الطريق ، وقال لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ، فنظروا إلى المعنى ، واجتهد آخرون ، وأخروها حتى وصلوا إلى بنى قريظة ، فصلوها ليلا ، فنظروا إلى حرفية النص ، واجتهد سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، وحكم فيهم باجتهاده ، فصوبه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » .

هذا هو حكم الاجتهاد فى شريعة الإسلام ، وهذا هدى السلف الصالح فيه ، أفما آن لنا أن نمد المدة ، ونأخذ الأهبة ، لنحيي هذه السنة ، ونقتفى أثر السالفين من علمائنا المجتهدين ؟ !

(يتبع) حسن أحمد الخطيب

(١) أعلام الموقعين لابن القيم .

من خواطر جحا :

معلم النبــاح

على هامش وعد بلفور

الأستاذ كامل كيلانى

« مهداة إلى الذين علموا أصحاب البيكى ، فنون النباح ، فراحوا يخلطون العواء بالنواح . وكانوا أول من تنكر لناصره ومؤيده ، ونبح فى وجه معلمه ومرشده . »

ننقل القصة التالية عن المقدمة النفيسة التى افتتح بها « أبو الغصن جحا » خواطره التى أهداها إلى ولديه «جحوان» و « جحية » وقد ضمها مخطوط جحوى نفيس ، لعله مكتوب بخط رجل من أصحاب جحا أو بخط أحد معاصريه . وما أجدر أن يعتبر بهذه القصة من يرسمون لغيرهم طرائق الاعتداء ومناهج الجور ، ويطول هتافهم وتصفيقهم لها ، واطراقهم وإعجابهم بها ، متى وافقت أهدافهم ، وأعانتهم على قضاء لباناتهم ، حتى إذا عارضت أهواءهم ، واصطدمت بأنانيتهم، ضاقوا بتلك الطرائق ذرعا ، ولاقوا من هذه المناهج أشد الويلات .

قال أبو الغصن عبدالله دجين بن ثابت الملقب بجحا رحمه الله :

قاتل الله الأثرة والأنانيــة — يا ولدىّ العزيزين — فإنهما تضلان الذكى ، وتلغيان عقله الراجح ، وتفسدان عليه منطقه السديد ، فلا يلبث أن يعميه الهوى ، وينسيه الغرض ما هو خليق به من القصد والاتزان ! وما أخلق الرجل العاقل بأن يعرف أن أكثر ما يشير به من الرأى إنما هو سلاح ذو حدين : أحدهما له والآخر عليه . ولا يجوز لمنصف بعد أن يتخير الرأى ويرتضيه أن يقبل منه ما هو له ويأبى منه ما هو عليه . وما أولاه أن يروض نفسه على احتمال عواقب مشورته ، فلا يوجه اللوم إلى غيره بعد أن يسر له سبيل الشر والأذية .

أقول هذا لكما بعــد أن قص علىّ بعض جيرانى فى هــذا الصباح قصته شاكيًا باكيًا تكاد مرارته تتميز من الغيظ ، وهو يلعن أنانية صاحبه ، بعد أن رسم له طريقها ، ونهج له خطتهــا ، وزين تطبيقها وتحقيقها .

وفد علىّ صاحبى « أبو عامر » عابس الوجه « ما خطبه »

فقال : « أتذكر صاحبنا أبا إسحاق ؟ »

قلت : أتعنى « رأس الوزة ؟ »

قال : « ما عنيت غيره ، يا أبا الغصن ! »

قلت : « فليس فى بلدنا أحد يجهله أو يجهل ما نزل به من كوارث وأحداث ! لطف الله به ياأبا عامر! لقد سمعت أنه اختلط »

فقال : « هــذا كلام يذاع وعلا الأسماع ، وإن بعد عن الحقيقة البعد كله . إن رأس الوزة لم يختلط ؛ ولكنه رأى فى جنونه مهربا له من ديونه ، فلاذ به ، وتشبث بأذياله ؛ ولم تلبث حيلته أن جازت على كل من رآه . وليس هذا بمستكثر على مثله ، فهو آية من آيات الخداع والغدر والعقوق ! »

قلت : « ما علمت عليه من سوء ! فماذا بدر منه حتى ساء رأيك فيه ، وقسا حكمك عليه ؟ »

قال : « لقد أرهقته ديونه ، وألح عليه دائنوه ، فلم يجد له وسيلة غير الاختباء فى منزله ليهرب من إلحاف غرمائه ، وينجو من مضايقة دائنيه » .

وكنت قد سلفته — فيمن سلفه — دينا يسيرا .

ورأيت إمعانه فى الاحتجاب ، فما زلت أحتال عليه ، حتى وصلت إليه .

ولم يكد يرانى حتى تجهم محياه ، وظهرت الحيرة والارتباك على سيماه ، فهونت عليه الأمر ، وما زلت به حتى سكن روعه ، وسرّى عنه .

وما عتم أن راجعه أنسه وبشاشته حين عرضت عليه وسيلة للخلاص من دينه ودائنيه والفكاك من أسره ، على أن يرد لى — إذا نجحت الخطة — ما أسلفته إليه من دين .

فتهلل بشراً وقال : « لك علىّ عهد وميثاق إن أظفرتنى بذلك لأردّنّ إليك ضعف دينك ، ثم لا أنسين لك صنيعك ما حييت » .

فقلت له : « افتح دارك — غداً أو بعد غد ، إن شئت — والبس أنخر ثيابك — وهى فى ساحة الدار أنخر مجلس تستطيع أن تهيئه لاستقبال طارقيك — دائنين وغير دائنين — ثم اجلس متكئا على أريكة تمدها فى صدر مجلسك . وتظاهر بالجد والوقار .

فإذا مر بك أحد فلا تلتفت إليه ولا تلق له بالا . فإذا حياك فلا تجب تحيته بغير النباح . فإذا أظهرلك دهشته فانبح ثانية وثالثة ، فإذا تمادى فى الالحاح ، تماديت فى النباح .

ثم اتخذ من النباح شعاراً لك بعد ذلك ، فلا تجب بغيره كل من حياك ، ولو كان أخلص عارفيك وأصدق محبيك وأقرب القريبين إليك من وَلدك وأهلك . انبح ولا تكف عن النباح ، واعو ولا تقصر فى العُواء ، حتى يضجروا بك فيرفعوا أمرك إلى والى المدينة .

فإذا مثَلت بين يديه فاعتصم بالصمت . فإذا سألك عن جلية أمرك لم تُحر من جواب إلا أن تملأ أذنيه عواء . وحذار أن تغير من ذلك شيئاً أوتبدله حتى يَقِرّ فى نفس الوالى أنك — فيما تأتيه — غير متصنع ولا متكلف .

فإذا اقتنع أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، لم يجد فائدة من حوارك ، فيدفعه اليأس منك إلى إطلاق سراحك ، ورد حريتك إليك ، وإعفائك مما عليك من دين !

أتعرف يا أبا الغصن كيف استقبل « رأس الوَزة » هذه النصيحة الغالية ؟ لقد فاضت نفسه — حين سمعها — عرفاناً بالجميل . ولهج لسانه بأبلغ عبارات الثناء والشكر على مايسرته له من أسباب النجاة من ورطته ، والخلاص من كُربته . فلما جاء الغد نفّذ الخطة وفق ما رسمتها له فى براعة وحذق !

قدم عليه زائر من جيرانه ، فلم يكد يراه جالساً حتى أقرأه السلام ، فكان رده عليه نباحاً . وأقبل ثان وثالث ورابع ، فلم يلقوا منه غير ما لقيه أول القادمين عليه .

ولم يمض زمن يسير حتى ذاعت قصته فى المدينة ، فأقبل عليه دائنوه يتقاضونه ديونه ، فلم يلقوه إلا عاوياً . وراحوا يعنفون به تارة ، ويلينون له تارة أخرى ، ثم يُسرفون فى وعيدهم حيناً ، وفى تلطفهم أحياناً ، فلم تُجد فى رده عن عوائه حيلة ولا وسيلة .

فلما يئسوا منه ، ذهبوا به إلى الوالى ، فسأله عن قصته ، فنبحه . فزجره وتوعده ، فوجده يسترسل فى النباح . وما زال بالوالى حتى أضجره ؛ فأمر بزجه فى السجن ، ووكل به من يراقبه عدة أيام ليختبر أمره ، ويجلو سره ، فلم يظفر منه مراقبوه بشىء غير ما تواصل من نباحه

فأمر الوالى بإطلاق سراحه بعد أن بث له بعض العيون والأرصاد يكمنون فى غدواته وروحاته ، ليروا ما يصير إليه شأنه . فظلوا ينيمون ظله أياماً ، فلم يتحول عن حاله فتيلا . فأيقن الوالى حينئذ أنه لا بد قد أصابه لَمَمٌ ، وأدركه من الخبال طرف .

فلم ير له حيلة فيه ، فقضى بإسقاط ديونه ، وأمر دائنيه بالإقلاع عن مطالبته بما لهم قِبَلَه من الحقوق .

وهكذا خلص « رأس الوَزّة » مما ركبه من دين . وتبدّل خوفه أمناً ، وفزعه طمأنينة ، وأصبح يغدو ويروح حيث شاء ، دون أن يزعجه دائن أو ينغص عليه صفو عيشه غريم

أتعرف كيف جزانى على هذا الصنيع يا أبا الغصن ؟

فقلت له مبتسما ساخراً وقد امتلأت نفسى زراية له ونفوراً منه : « لا شك عندى فى أنه سار على النهج القويم الذى رسمته له فى اغتيال حقوق الناس ، فنبح فى وجهك كما نبح فى وجوه دائنيه ، ثم فى وجه واليه » .

قال « أبو عامر » :

ما أبدع ذكاءك وأنفذ فطنتك يا أبا الغصن : لقد جئته بعد أن هدأ باله وقَرَّ قراره أذكره عهده ، وأستنجزه وعده ، فما زاد على النباح . فدهشت من جرأته ، وتملكتنى الحيرة من صفاقته . وقلت له : « لك أن تمثل هذا الدور مع كل إنسان إلا معى ، وأنا واضع خُطّته ، ومُبدع قصته . فتكلم ويحك ! » .

فأبى إلا عواء يتلوه عواء ، وكلما تماديت فى محادثته تمادى فى عوائه ، حتى نفدت حيلتى ، ودب اليأس إلى قلبى ، فغادرته محزون القلب مهيض الجناح .

ورجعت إلى دارى أفكر فيما انطوت عليه نفوس الناس من غدر ولؤم وفساد ، بعد أن رأيت من صاحبى ما لم يكن ليخطر لى على بال ، من فنون العقوق ، وسلب الحقوق .

ولكن خبرنى بربك — يا أبا الغصن — كيف تبينت خاتمة القصة قبل أن أفضى بها إليك ؟ » .

فقلت له : « إن عجبى منك — لا منه — شديد . فليس عليه — فيما صنع — غبار : لقد رسمت له الطريقة واضحة جلية ، فسلكها مهتدياً بهديك ، فما تنكبها ولا حاد عنها . فمن تلوم ؟ وممّ تشكو ؟

من التاريخ الإسلامي :

هنـــد والمغيرة

للأستاذ علي الطنطاوي

في عشية (من عشايا سنة ٤١ للهجرة) ساكنة لا يسمع فيها إلا الصمت ، في برية هادئة لا يُرى فيها إلا السكون ، كان يرى القادم على (الحيرة) إذا هو اجتاز بدير هند ، عند النخلة المتفردة التي قامت على الطريق ، عجوزاً طاعنة قد انكمشت وانطوت على نفسها وجلست صامتة وحيدة تجيل عينها الضعيفتين في هذه الدنيا الصامتة التي دارت من حولها ، فتبدل كل شيء وهي ثابتة : كانت نبتةً طرية مزهرة في ذلك الروض ، فباد الروض كله وبقيت هي وحدها حطبةً يابسةً . وكانت كلمة في كتاب الماضي ، فمحيت سطوره كلها وبقيت هي وحدها الكتابَ . هذه العجوز التي تراها فتحسبها قد فرغت من الهم ، واستراحت من الحزن ، تطوى أضالعها على ذكريات ضخمة لعالم كامل أخنى عليه الدهر وأضاعه ، ولم يدع منه إلا هذه الذكريات تحفظها وتحملها وحدها . إنها لا تعيش في دنيا الناس ولا يعيشون في دنياها . إنها لا تعرف شيئاً مما يحيط بها ، ولا تنسى شيئاً من عالمها الذي افتقدته من زمان ، عالم الحيرة وعديّ بن زيد والنعمان ، العالم الذي احتوى مسراتها وأحزانها وروحها ، فلما مرّ حمل ذلك كله معه فعاشت من بعده بلا حب ولا مسرات ولا أحزان ولا روح ، إلا هذه الذكريات التي تنقر كل يوم نقرة في قلبها ، فلو كان حجراً صلداً لتفتت فكيف وهو من لحم ودم ؟

لقد بنت هذا الدير وتوارت وراء جدرانه ، وعاشت منه في المنطقة الحرام بين الحياتين ، فلا هي بحياة الناس الدنيا ، فيها متعها وملاهيها ومشاغلها ، ولا هي بالحياة الأخرى ، منطقة وراء الحياة ودون الموت ، هي معيشة الدير . وزادها ضيقاً وجموداً أنها في الدير وحدها ، بَنَتْه لتأوي إليه تناجي فيه ذكريات حبيبها الذي لجت به ، وعافت لأجله الأرض رحبها وسعتها ، وصبرت على هذا السجن الدهر الأطول ، لا تدري مما وراء بابه إلا طرفاً مما

* * *

ألم تعلمه كيف يغتال حقوق الناس ؟ وهل أنت إلا واحد من الناس ؟ فكيف تريده على ألا يغتال حقك فيما يغتال ؟ ما أجدرك — يا صاحبي — أن تشكر لهذا الرجل أمانته في الانتصار لرأيك ، والتحمس لخطتك ، والانتفاع بتدبيرك ومشورتك . لقد لقنته درساً في الأثرة والأنانية فحفظه عنك ولم ينسه لك . وسننت له سنة من سنن العقوق والغدر ، فاقتفى آثارك ، وارتضى سيرتك . ولو حسنت له الوفاء ، ورسمت له طريقه لوفى لك دينك فيما وفى للناس .

ثم خبرني بربك — يا أبا عامر — أتراك كنت شاكياً غدره وتفريطه في رد الأمانات إلى أهلها لو أنه وفى لك دينك وحدك ، ثم اغتال ديون غيرك ؟

أرأيت — يا صاحبي — لو سمعت أن رجلاً هدى الذئب إلى طريق الغنم بعد أن أخذ عليه ما شاء من عهود ومواثيق أن يعفي شائه من بينها جميعاً ، أتراه كان عاقلا ؟

لقد علمته العواء فعوى ، وأرشدته إلى طريق الغواية فغوى !؟ واستباح من الحقوق ما استباح ، بفضل ما علمته من فنون العواء والنباح .

وليس هذا أول من نبح ، فكسب بنباحه وربح : وكم من الناس آثروا أن يبلغوا أهدافهم بالهراء ، ويتسنموا المجد بقول جفاء . فتصنعوا الجنون ليصبحوا أعزة ، بعد أن أعوزهم أن يظفروا في ظلال العقل بالكرامة والعزة ، كما فعل صاحبك « رأس الوزة » .

فلترض ياصاحبي بهذا الجزاء العادل ، فما ظلم « رأس الوزة » ولا غبن ، ولكنك ظلمت نفسك بتلك المشورة فيمن ظلمت من الناس ، فلا تجزعن من سنة سننتها ، وخطة نهجتها . وتلك أسوة سيئة في شيخك الذي وصفه الشاعر حين قال :

وكنت إماما للعشيرة ، تنتهي
إليك ، إذا ضاقت — بأمر — صدورها

فلا تجزعنْ من سيرة أنت سرتها ،
فأول راض سنة من يسيرها

عبد الله جما — وفي الأصل — كامل كيلاني

يحمله إليها رجال القوافل الذين كانوا يمرون بها ، وكان أقصى ما تصنعه إذا هي نشطت يوماً ، وأحبت أن تفارق مَنْسَكَها ، أن تسلك هذا الطريق الذي طالما مر عليه فاتحون ومنهزمون ، وسارت فيه الحضارة مُصْعِدة وهابطة ، ومشى فيه ملوك وسوقة ، وسوقة وملوك ، ذهبوا جميعاً إلى حيث لا يؤوب ذاهب ، حتى تتعب من السير ، فتجلس على رابية ، وتشرف على البلد الحبيب : الحيرة ، التي كانت يوماً موطن هواها ، وكان فيها الإنسان الذي أعطته قلبها وأعطاها متعة العمر ، فترى الحيرة لا تزال ترفل في حلل الخزامى والأقحوان ، ولا تزال قصورها البيض تخطر تياهة بين البساتين ، ولا يزال نسيمها معطراً بأنفاس المحبين ، تطفو على وجهه وسوسات القُبَل وهمسات الغرام . ولكنها لم تكن تحيا فيها ، كانت تفكر في ماضيها ، وما أصعب أن يعيش المرء في الماضي ، ثم تذكر أنه لم يبق أحد من ناس بلدها الحبيب ، لقد ذهبوا ، ولا تدرى أين ذهبوا ، ولمَ بقيت هي وحدها من بعدهم ؟ وجاء هؤلاء ، ولا تدرى من أين جاءوا ، حتى تغرب الشمس وراء الأفق البعيد ، وتمشى الظلمة إلى الكون ، فتعود وفي قلبها ظلمة أخرى ، ولكنها لا تأمل أن يكر عليها فجر يوم جديد . لقد خلفت ضياء الفجر في طريق العمر فلا تملك أن تعود إليه . لقد كتب عليها أن تعيش في ليل دائم وصمت سرمدى هو صمت هذه الصحراء التي آوت إليها ، وآثرت سكناها ، الصحراء التي وسع صدرها أسرار الزمان ثم أغلق عليه إلى الأبد . كم بين ترابها ورملها ، كم تحت روابيها وقبورها ، من بقايا قلوب كانت محبة وكانت محبوبة ، وأجسام كان فيها فتنة وجمال ! وما أقرب ما يصير قلبها هي (أيضاً) تراباً فيها تطؤه أقدام لا تعرف أصحابها ... فما الحب ، وما الجمال ، وما الدنيا ؟ إنها زوال في زوال .

وقامت العجوز تجر رجلها إلى الدير لتبدأ ليلة مملة طويلة كآلاف الليالي التي مرت بها من قبل ، ليالي لا آخر لها ، ولا أمل يسطع من خلالها . إن السجين يأمل بالعفو ويرجو الحرية ، ويتسلى بحديث الرفاق ، ويأنس بأحداث السجن ، وهي لا ترجو شيئاً ولا تأنس بأحد ، ولا تتسلى بحادث . ولطالما أمضت ليالي قصيرة حلوة ، تلك هي ليالي الحب والوصال ، ليالي زوجها عدي فتى الفتيان ، وأبيها النعمان . إنها كلما فكرت فيها رأتها دانية منها ، قريبة كأنها لم يطلع لها صبح ، فأين يا تبصر[1] مكانها من الوجود ، أفنيتْ وعادت عدماً ؟ لا ، إن الفناء لا يقوى عليها . إنها موجودة في الكون كوجودها في ذاكرتها . إن الفناء لا يدرك حقيقتها كما أن النسيان لا يقوى على محو صورها . إنها لا تشبع من الإيغال في هذا الماضي ، لأنها كلما أوغلت فيه جَدَّت لها طرق خفية لا عهد لها بها ، قد أزهر فيها المجد وبدا السنا ، ورعُبا على كل رابية فراش غرام مرشوش بالعطر والشعر ، ووجوه أحبَّة كانت تعيش بهم ولهم ...

ولطالما اجتوت (من محبتها هذا الماضي) حاضرها فخامرتها فكرة الموت ، فمشت تقصد النهر حتى إذا أدنتها خطاها الواهنة من مائه ، ورأتها تلمع كالمرآة ، أشفقت من الموت وهابته وارتدت عنه للمرة الخامسة بعد الألف . إنها لا تريد أن تموت ، ولا تزال متعلقة بحياة قد أقفرت من المجد والحب .

* * *

ولما دلفت إلى مخدعها في الدير سمعت ضجة ، وقالوا لها : إنه الأمير المغيرة بن شعبة يستأذن عليك . الأمير ؟ ما لها وللأمير ؟ ما شأنه بها ؟ ما يبتغى لديها ؟ أما ترك له ولقومه ملك أبيها فلم لا يترك لها ديرها ؟ وفكرت ... ثم أذنت له . فدخل عليها فبسطت له مسحاً ، وسألته : ما جاء بك ؟ قال : جئتك خاطباً ؟

خاطباً ؟ إنها كلمة لم تسمعها من عمر طويل ، فلما طرقت سمعها هزّت وتراً في قلبها كان قد صدئ ، ونسيت ضيفها وقفزت إلى الماضي فغابت عن حاضرها ، وغرقت في ذهلة عميقة امتدت أبداً ، والمغيرة يرقب جوابها ولكنه كان أكيس من أن يفسد عليها أحلامها ، فانتظر ساكتاً ...

* * *

تخيلت أنها قد عادت لجأة تلك الفتاة التي كانت فتنة القلب والنظر ، وكانت مطمح الأنفس والفكر قد جمع الله لها المجد كله والجمال كله ، فهي عروس الزمان بهاء وحسناً ، وهي بنت النعمان أعز عربي عزاً ، وأمجده مجداً ، وإنها قد عادت أيام الحيرة ، ورجع

(1) إنما مر أن تقول (يا ترى) فلم لا تقول (يا تبصر) فتنجو من هذا الابتذال وتأتى بجديد والاعراب في كليهما واحد فتقدر لـ (يا) منادى وخاطبه

الفصح والشمانين ، فخرجت إلى البيعة تتقرب فيها ، فلما احتوتها البيعة ، وأمنت الأنظار ، ألقت عنها خمارها ، وأخرجت هذه اللؤلؤة من صدفتها ، وأبدت ذلك الجسم الذي كانت تتقطع على الوصول إليه قلوب الرجال ، ولم تدر أن الزمان أراد أن يؤلف قصة حب تتلى بعد أربعة عشر قرناً ، فجاء بعدى بن زيد الشاعر الجليل ليختلس النظر إليها ، ويقع في قلبه هواها ، فلما رآته استترت منه وسبت جواريها ، وظنت أن القصة ختمت قبل أن تفتتح ، لم تدر أنها قد سطرت منها الأسطر الأولى (لتكون سفر سعادتها العاجلة وشقائها الطويل) بدا (مارية) الجيلة الخبيثة ...

لقد كانت مارية تحب عديا ، ولا تجد إلى الوصول إليه سبيلا : إلا أن تأتى بهند لتحلها مكان المحبوبة من قلبه ، ترضى بذلك حبها ونفسها ، وقد يفنى المحب في الحبيب ، فيبنى مسرته على أساس من شقاء نفسه ، ومشت بين عدى وهند تدير خيط الحب من حولها ، حتى غدا سبباً قويا ، وجامعة لا تنقطع . لقد صبرت حتى مضى حول كامل على يوم الشمانين ونسيته هند ، فواعدت مارية عديا بيعة توما ، وأغرت هندا بزيارتها ، فاستأذنت أمها فأذنت لها وهنالك عرفت هند ما الغرام ، وذاقت غصصه ...

يا ويل مارية ! لقد جعلت هنداً مهراً لها لزواج ليلة[1] لقد تعرضت لعدى غداة يوم توما فهش لها وبش — وقد كان لا يكلمها — وقال لها : ما غدا بك ؟ قالت : حاجة ! قال : اذكريها فوالله لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك إياه .

قالت : أريد ... وسكتت ، وأدركها الخجل ، ونطقت عيناها وفهم عنها ، فأخذ بيدها إلى حانوت خمار في الحيرة ... وكافأته بأن وعدته أن تحتال له في هند ....

وتتالت الصور على قلب هند ، فذكرت ليالى زواجها بعدى ، فكانت لقوة الذكرى تحس على لسانها حلاوة تلك القبل ، وتجد على عنقها لذة ذلك العناق، وعاد قلبها شابا ؛ على أن قلب المرأة والشاعر لا يفارقهما الشباب أبداً . ومدت يدها إلى المغيرة ، تحسب أنه لما طفى عليها من الخيال ، عدى الحبيب ، فلما أحس بها أجفل منها وانتفض ، فتهاوى الحلم وتهافت ، وهبطت المسكينة إلى أرض الحقيقة الصلدة ، فإذا هي لم تفارق أرضها ولم تطر في سماء الأماني

(١) لأنهم كانوا قوما نصارى تمهر نساؤهم .

وإذا هي تتحسس وجهها فتلقاه ذابلا ذاوياً ذا غضون . ولا تلقى على لسانها من قبل الحبيب إلا مرارة الفقد ، ولا تجد في قلبها إلا ذكرى الفاجعة التي تركت لأجلها دنياها وبنت ديرها لحبست فيه نفسها ، فماذا يريد منها هذا الرجل الذي اقتحم عليها معتزلها في هذه المشية الساكتة ، أجاء يخطب عجوزاً قد بقيت وحدها إرثاً من الدنيا التي فنيت واضمحلت : دنيا النعمان وكسرى ، للدنيا التي يظهر أنها لن تضمحل أبداً : دنيا محمد ؟ أيريد أن يتزوج ميتة تمشى ؟ لا . بل هو يريد ابنة النعمان ، ونسيت تطوافها الأليم بمرابع ماضيها ، وغاب عنها الحبيب الذي كان يتراءى لها من وراء حجب الزمان — وأدركها ارثها الماجد من حزم النعمان — فقالت للمغيرة :

« لو علمت أن في خصلة من جمال أو شباب رغبتك في لأجبتك ، ولكنك أردت أن تقول في المواسم ، ملكت مملكة النعمان بن المنذر ونكحت ابنته ، فبحق معبودك هذا أردت » ؟

قال : « أى والله » قالت : « لا سبيل إليه[1] » .

* * *

وخرج المغيرة ، وعادت العجوز إلى مكابدة الذكريات وحيدة في لياليها الطوال ... وأعرض عنها التاريخ لا يلتفت إليها فيواسيها ، لأنه لم يتعود الوقوف إلا على أبواب الملوك ، وفى ساحات الحروب !

على الطنطاوي

(١) جمل من التاريخ ، والقصة على عهدة الشيخ الأموى صاحب الأغانى

توماسو كمبانلا

لألفرد فيبر

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

إنا نصيب في بحوث توماسو كبانلا[١] — وهو كبرونو[٢] دومنيكي من جنوبي إيطاليا — ملامح من مقالات الإنجليز والألمان في العقل الإنساني، أعني من النقد الحديث[٣]. وُلِدَ هذا البطل الجريء من أبطال الإصلاح الفلسفي والحرية الإيطالية بقرية من « ستيلو » من أعمال كالَبْريا، سنة ١٥٦٨، وتوفي في باريس، سنة ١٦٣٩، بعد أن أنفق سبعة وعشرين عاماً في غياهب السجن بنابُلي، بتهمة التآمر على الحكم الأسباني.

وكبانلا تلميذ من تلامذة الشكاك اليونان. وقد علمته هذه المدرسة أن الميتافيزيقا تقوم على الرمل إن لم تُبْنَ على أساس نظرية في المعرفة. ومن ثمَّ تبحث فلسفته أولَ ما تبحث في المسألة الصورية.

تنشأ معرفتنا من مصدرين: التجربة الحسية، والاستدلال العقلي؛ فهي إما « تجريبيّة » وإما « نظرية ».

هل المعرفة المحصَّلة بالإحساس يقينية؟

يرى أغلب القدماء أن شهادة الحواس يجب أنْ تُغفل، ويلخص الشكاك شكوكهم في الحجة التالية: ليس للموضوع الذي تدركه الحواس إلا تكيُّفاً في الذات، وإن الواقعات (Facts) التي تحصل — فيما تخبرنا الحواس — خارج النفس، إنما تحصل على الحقيقة فيها. الحواس هي حواسي؛ إنهـــا جزء مني؛ والإحساس واقعة تُحدث فيَّ؛ وهي واقعة أعللها بعلة خارجية، في حين أن الذات المفكرة قد تكون علتها المعيّنة ولكن غيرَ الواعية؛ فليس هذا التعليل بأعسرَ من ذاك. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نستطيع أنْ نصل إلى علمٍ يقينيٍ بوجود الأشياء الخارجية وطبيعتها؟ إذا كان الموضوع الذي تدركه حواسّي لا يزيد على أنه إحساسي، فكيف أبرهن على أنه موجود في الخارج؟ يجيب كبانلا: بأني أبرهن على ذلك « بالحس الباطن ». فالإدراك الحسي يجب أن يستمد صفة اليقين — التي لا يملكها في نفسه — من العقل: فالعقل يحيله معرفةً. قد يشك الميتافيزيقيُّ في صدق الحواسّ، ولكنه لا يستطيع أن يتهم الحس الباطن. بيد أن الأخير يكشف لي عن وجودي بلا واسطة؛ ويقينٍ لا ظل من الشك فيه. إنه يكشف لي عن نفسي كائناً يوجد، ويفعل، ويعرف، ويريد؛ ولكن هيهات أن يفعل ويعرف كل شيء. إنه — بعبارة أخرى — يكشف لي عن وجودي وحدوده معاً. ومن ثم أستنتج بالضرورة أن هناك كياناً يحدُّني، أو عالماً موضوعياً يختلف عني؛ أو (لا أنا). وهكذا أبرهن بالمنهج البَعْدي a poteriori على حقيقة فطرية، أو قبلية a priori أو سابقة على كل تفكير: وهي أن وجود (اللا أنا) هو علة إدراكي الحسي.

أتدحض هذه الحجة مذهبَ الشك؟ الحق أنها لا تبلغ من ذلك كثيراً، وإن فيلسوفنا ليعترف بهذا، ولا يدعي لنفسه النصر والغلبة. فإن قولك إن الحواس صادقة في إراءتنا الموضوعات الخارجية، لا يلزم عنه بالضرورة أنها ترينا هذه الموضوعات على ما هي عليه. إن التطابق الذي تفترضه « التوكيدية »[١] بين نحوِ تصوُّرنا الأشياء ونحو وجودها إنما هو — في رأي كبانلا — نتيجة لتماثل (analogy) الموجودات، وهذا بدوره نتيجة لحقيقة ممتنعة على البرهان: وهي أصلُ الموجودات الموحَّد. ثم إنه لا يسلم أن لدى النفس الإنسانية علماً مطلقاً بالأشياء. قد تكون معرفتنا صحيحة، ولكنها لن تكون تامة أبداً. وهي إذا قيست بمعرفة الله تافهة أشبه بلا شيء. وقد كنا خُلَقاء أن نعرف الأشياء على ما هي عليه، لو كانت معرفتنا فعلاً محضاً: لو كان

(١) Dogmatism — التوكيديون هم القائلون بإمكان معرفة الحقائق القصوى (للمعرب).

(١) Tommaso Campanella

(٢) انظر العدد (٦٤٠) من « الرسالة ».

(٣) أسمى (لوك) و (هيوم) وآخرون بعض كتبهم (بالمقالات). مثلا: « مقال في العقل الإنساني »، « مقال في الطبيعة الإنسانية ». وعد (كانت) مؤسساً لفلسفة النقد، أي نقد العقل والتحقق من حدوده وقواه، وهل هو أهل لحل المشاكل الميتافيزيقية العليا. بيد أن أبحاث لوك وباركلي وهيوم مهدت لظهور فلسفة النقد وفهم هؤلاء الفلاسفة ضروري لفهم كانت (المعرب).

إدراكنا خلقاً . إنا لأجل أن نعرف الأشياء على ما هى عليه ، أو بصورة مطلقة ، يجب أن نكون « المطلق » من حيث هو ، أى نكون « الخالق » نفسه . على أن معرفتنا وإن كانت مثلا أعلى لا يستطيع الإنسان تحقيقه — وهذا دليل بيّن على أن هذه الدنيا ليست بداره الحق — فإن من واجب المفكر أن يشتغل بالبحث الميتافيزيقى .

والميتافيزيقا ، أو الفلسفة الكلية ، باعتبار موضوعها ، هى علم مبادئ الوجود أو شروطه الأولى ؛ وهى ، باعتبار مصادرها وآلاتها ومناهجها ، علم العقل ، الذى يفوق العلم التجريبى يقيناً وسلطاناً .

والوجود أو الكينونة معناها الصدور من مبدأ والرجوع إليه . ترى ما هو هذا المبدأ ؛ أو بالأحرى ما هى هذه المبادئ ؟ فإن الوحدة المجردة شىء عقيم . وبعبارة أخرى : ما هى شروط وجود الوجود ؟ الجواب :

١ — أن يكون « قادراً » على الوجود .

٢ — أن يكون فى الطبيعة فكرة أو « مثال » ، هذا الموجود تحقيق له (لأن الطبيعة لا تحدث شيئاً بغير علم) .

٣ — أن يكون ثمّ « نزوع » إلى تحقيق المثال . فالقدرة والمعرفة والإرادة هى مبادئ الوجود النسبى . ومجموع هذه المبادئ ، أو (بالأحرى) الوحدة العليا التى تحويها ، هى الله . فالله هو القدرة المطلقة ، والمعرفة المطلقة ، والإرادة أو المحبة المطلقة .

وللمخلوقات أيضاً قدرة وإرادة وإدراك ، وحظوظها من هذه الصفات تتفاوت بتفاوت قربها من مصدر الأشياء . فإن الكون نظام متدرّج ، ينتظم العالم العقلىّ ، أو اللاهوتىّ أو الميتافيزيقىّ (الملائكة ، والنفس العامة ، والنفوس الخالدة) والعالم السرمدىّ أو الرياضى ؛ والعالم الزمنىّ أو الجسمانى . وكل هذه العوالم — حتى العالم الجسمانى نفسه — تشارك فى المطلق ، وتعكس عناصره اللاهوتيّة الثلاثة : القدرة والمعرفة والإرادة .

كلُّ موجود فإنما يصدر عن الكائن المطلق ويسعى إلى الرجوع إليه . وبهذا المعنى يصحّ أن نقول إن الوجودات المتناهية كلها بلا استثناء « تحبُّ » الله ؛ كلها ديّنة ؛ كلها تسعى إلى أن تحيا حياة الخالق اللانهائية ؛ كلها تفزع من اللاوجود ، وبما أنها جميعاً تحمل فى نفسها اللاوجود بالإضافة إلى الوجود ، فكلها تحب الله أكثر من ذاتها . إن الدين ظاهرة كلية ، مصدرها توقف الأشياء كلها على الكائن المطلق ؛ وإن علم الدين أو اللاهوت ليسمو على الفلسفة سمو الله على الإنسان .

بالرغم من كل هذا الذى سلمه كيانلا للكاثوليكية ، وبالرغم من رسالته الموسومة « بالإلحاد المتنصر » ، كانت محاولاته فى الإصلاح موضع ريبة الكنيسة ، فلم يتحقق منها شىء . وقد يئست الفلسفة بعده أن تظفر بمزيد من التقدم فى إيطاليا ؛ فتراها من ذلك الوقت تقيم فى البلدان التى أثارها أو حررها الإصلاح الدينى : فى إنجلترا ، وعلى منفى الراين[1] .

(بغداد) **عبد الكريم الناصرى**

---

(١) يعد جيوفانى باتيستا فيكو (Vico) — المتوفى عام ١٧٤٤ — أشهر الفلاسفة الإيطاليين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد عرف خصوصاً بكتابه « العلم الجديد » (نابلى — ١٧٢٥) وهو من أولى المحاولات لإيجاد فلسفة التاريخ . وقد حاول مفكرون محدثون قديرون من أمثال جاليلى ، وروسمينى ، وجيوبرتى ، وماميانى ، وفرارى — أن يعيدوا إلى إيطاليا ما كانت تتمتع به فى عصر الاحياء من جاه فلسفى . انظر فى ذلك رفائيل ماريانو : « الفلسفة المعاصرة فى إيطاليا » :

Mariano : "La philosophie contemporaine en Italie," Paris, 1868

(المؤلف)

قصة بني إسرائيل

في القرآن الكريم

للأستاذ علي محمد حسن

[مهداة إلى يهود القرن العشرين الذين يريدون دخول فلسطين بالقوة بمناسبة وعد بلفور] .

أشرت في عدد سابق من الرسالة إلى بعض مواقف بني إسرائيل مع نبيهم القوي الأمين موسى بن عمران ، وعطفت بإشارة أخرى إلى بعض مواقف أجدادنا العرب في نصرة دينهم ، ومثّلت بين الشعبين ووزنت أقدار أولئك بأقدار هؤلاء فشالت كفة الإسرائيليين وخفت موازينهم .

واليوم أهدي إليهم قصة آبائهم مفصلة بعض التفصيل ، ولست أجني عليهم ولا أتزيد فإن الحقائق نفسها أعجب من سبحات الخيال . وسأكتفي — ما استطعت — بما جاء في كتاب الله الحكيم الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

ولقد عني القرآن بأخبار الأمم السابقة لمكان العبرة فيها وموضع العظة « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[1] ولكنه عني عناية خاصة بأعاجيب بني إسرائيل ليهون على النبي صلى الله عليه وسلم ما يلقاه من يهود المدينة فهم — كآبائهم — أهل غدر وخيانة ، وطالما نكثوا عهودهم « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون »[2] وليُهددهم إذا استمرأوا هذا المرعى الوبيء واستعذبوا هذا الورد الآسن من الغدر والكيد والخيانة بأن مصيرهم كمصائر آبائهم ، كما حذر الله النبي والمؤمنين منهم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »[3] ولقد صدق الله فبأيديهم فتح باب الشر على المسلمين . فتحه عبد الله بن سبأ فتقدمه

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .
(٢) سورة الأنفال ٥٦ . (٣) سورة المائدة ٨٢ .

الناس إلى قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومنذ ذلك الحين ومعاول الفتن تهدم في دعائم السياسة الإسلامية ، وبسوء دخائلهم اختلطت الخرافات والأساطير بالتراث الإسلامي فكدرت منهله الصافي ، وغبّرت مناهجه الواضح ، ونالت من حقائقه السامية .

واليوم يتجلى لنا مصداق هذه الآية ، فتراهم مصدر قلاقل للعرب عامة وللمسلمين خاصة وإنا لعلى يقين أنه سيصدق فيهم قول الله عز وجل « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »[1] .

والعجب — بل ليس بعجيب لأن الأمم بأخلاقها — أن بني إسرائيل أعيوا جميع أنبيائهم ، حتى بلغ من كفرهم أن قتلوا بعضهم « ويقتلون النبيين بغير الحق »[2] . شكا منهم موسى « رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين »[3] وشكا منهم هرون « إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني »[4] . وشكا منهم داود وزكريا ويحيى ؛ وأخيراً يسميهم الله بهاتين الآيتين ويصمهم بهما « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »[5] ثم كانوا شوكة في جنب الدعوة الإسلامية ، فحاولوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ولكن الله الذي يعلم خبث نفوسهم عاجلهم بالعقوبة « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين »[6] .

* * *

نزل يعقوب وهو إسرائيل مصر في زمن ابنه يوسف عليه السلام وأعقب بنين اثني عشر كانوا فيما بعد فرقاً سماهم القرآن أسباطاً وتكرر ذكرهم فيه ، وظلوا يتمتعون بخيرات مصر وأرزاقها زمناً طويلاً حتى جاء (رعمسيس الثاني) فاضطهدهم وعاداهم عداء

(١) سورة الأعراف ١٦٧ . (٢) سورة البقرة ٦١
(٣) سورة المائدة ٢٥ . (٤) سورة الأعراف ١٠٠
(٥) سورة المائدة ٧٨ ، ٧٩ .
(٦) سورة الحشر ٢ .

شديداً وجعل يقتل أبناءهم ، وأراد الله أن يسبغ عليهم نعمه فنجاهم وأهلك عدوهم و (دللهم وأعطاهم حكم الصبي على أهله فأتاهم بالعجائب وفعل بالأمم الظالمة لهم الأفاعيل ، واحتمل صلفهم وطغيانهم ولم يترك وسيلة من وسائل استرضائهم إلا فعلها وهم لا يزيدون إلا عناداً ومخالفة عن أمره)[1] . جاء موسى إلى فرعون يدعوه إلى الله وحده لا شريك له ويستوهبه بني إسرائيل ، ولكنه طغى واستكبر وقال أنا ربكم الأعلى ، فأوحى الله إلى موسى أن أسر بعبادي فرأوا فرعون يتبعهم ، فقالوا إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين . وفرق بهم البحر الأحمر وعبروا فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون »[2] . وكانت هذه نعمة عظيمة لو أنفقوا أعمارهم ساجدين لله شكراً ما وفوها حقها ، لكن نفوسهم الخبيثة أبت إلا أن تستعلن فما كادوا يعبرون البحر حتى نسوا ما كانوا فيه وجحدوا نعمة الله عليهم وطلبوا إلها غير الله يعبدونه « وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالو ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة »[3] وعجبت لموسى أن يكون معهم هذه المرة لطيفاً هادئاً وأن يجادلهم بالمنطق ويدعوهم بالتي هي أحسن « قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين »[4] وسكتوا إلى حين وخضعوا على دخن ، فلما سنحت لهم الفرصة نهزوها فما كاد موسى يذهب لمناجاة ربه حتى صنعوا من حليهم عجلا يعبدون ، وعبثاً حاول هرون أن يردهم قال « يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى »[5] . « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين » .

وهنا نرى عجيبة من أكبر عجائبهم ، وذلك أن موسى تخلهم واختار منهم سبعين رجلا ليتوبوا إلى الله من عبادة العجل ، وكان الظن بهم أن يكونوا بررة أطهاراً ، ولشد ما دُهش موسى حينما قالوا له « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة »[1] فنددبهم القرآن ، وجعلها مخزاة في أعقابهم « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة »[2] ووبخ العرب لما حاولوا أن يعنتوا مع النبي « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل »[3] ثم أخذ موسى يشرح لهم ما في الألواح ويعرض عليهم شريعته ، ولكن رأى من كفرهم وعنادهم ما جعل الله تعالى يريهم آية من آيه « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون »[4] . وكان من شأنه بعد ذلك ما ذكرته في (الرسالة) سابقاً من دعوة موسى لهم إلى دخول الأرض المقدسة ونكولهم عنها وخوفهم من سكانها فحرمت عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض. وهناك في التيه أنزل الله عليهم المن والسلوى وظلل عليهم الغمام ولكنهم يئسوا من هذه النعم وملوها وقالوا يا موسى « لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها »[5] . ومات هرون في التيه ومات موسى ومات جيلهم القديم فلم يكن من الناشئة إلا كما كان من آبائهم ؛ أمروا أن يدخلوا (أريحاء) فدخلوها ولكنهم بدلوا قولا غير الذي قيل لهم .

ولعل من أولى مواقف بني إسرائيل بأن نهديه إلى يهود اليوم ما كان منهم مع نبيهم صموئيل « ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؛ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين »[6] . ولو ذهبنا نتتبع جميع مساوئهم لطال بنا القول فنجتزئ بهذا القدر ففيه بلاغ . ولكن يبدو هنا سؤال وهو إذا كان بنو إسرائيل بهذه

(١) قصص الأنبياء للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٣٠٤ .
(٢) سورة البقرة ٤٩ ، ٥٠ (٣) سورة الأعراف ١٣٨ .
(٤) سورة الأعراف ١٤٠ (٥) سورة طه ٩٠ ، ٩١ .

(١) سورة البقرة ٥٥ . (٢) سورة النساء ١٥٣ .
(٣) سورة البقرة ١٠٨ . (٤) سورة الأعراف ١٧١
(٥) سورة البقرة ٦١ . (٦) سورة البقرة ٢٤٦ .

مين دى بيران

(١٧٦٦ - ١٨٢٤)

فيلسوف المذهب الروحى فى العصر الحديث

للأستاذ زكريا ابراهيم

مين دى بيران فيلسوف فرنسى ممتاز، أدرك الباحثون قيمته بعد وفاته، فاهتموا بنشر مؤلفاته، واعتنوا بدراسة فلسفته. وقد ذاعت شهرته على أثر ذلك، فلقى مذهبه رواجاً كبيراً بين الأوساط الفلسفية التى أقبلت على دراسته.

والفكرة الأساسية التى يقوم عليها مذهب « دى بيران » هى أن الحقيقة الجوهرية الأولى ليست سوى « الذات » باعتبارها مريدة، أى « الروح » باعتبارها فاعـلة. فما يكون جوهر الإنسان، إنما هو الإرادة. والإرادة هى التى تميز الإنسان عن الحيوان، لأن الإنسان لا يحيا ويحس ويشعر فحسب، بل هو يفكر ويريد ويفعل. وإذا كان الإنسان يدرك ذاته، فإنه لا يدرك هذه الذات إلا باعتبار أنها علة، وقوة، وإرادة، وجهد، وفعل. ومعنى هذا أن نقطة البدء فى كل معرفة حقيقية، إنما هى تلك الواقعة الأولية للشعور أو الوعى الإنسانى، وهى الحس الباطن أو التجربة الباطنة. وفى هـذه البداية يتفق دى بيران مع فخته Fichte اتفاقاً كبيرا، حتى لقد سمى كوزان فيلسوفنا باسم: « فخته الفرنسى ».

غير أن دى بيران يستبدل بفكرة فخته عن « الفعل » فكرة أخرى جديدة هى فكرة « الجهد ». فالواقعة الأولية عند مين دى بيران ليست هى « الإحساس المجرد » الذى يقول به كوندياك Condillac، وليست هى « الفكر » بالمعنى الذى قصد إليه ديكارت، بل هى « المجهود » الذى يقوم عليه إدراك الذات لنفسها.

ولما كانت الواقعة الأولية للذات « Le Fait primitif » هى إدراكها لنفسها، من حيث هى قوة حرة، تعمل وتشرع فى الحركة، بإرادتها الخاصة؛ فإن الصواب (فى نظر دى بيران) لا أن نقول (كما قال ديكارت): « أنا أفكر، فأنا إذن موجود » أو بعبارة أخرى: « أنا أدرك نفسى باعتبارى علة حـرة، فأنا إذن علة موجودة بالفعل ». وفى موضع آخر نجد مين دى بيران يصحح مقالة ديكارت فيقول: « إذا كان ديكارت قد توهم أنه اهتدى إلى المبدأ الأول لكل علم حين قال: « أنا أفكر، فأنا إذن شيء موجود، أو جوهر مفكر »، فإن فى استطاعتنا أن نقول — تصويباً لهذه العبارة — وبالإستناد إلى شهادة الحس الباطن التى لا ترد: « أنا أفعل، أنا أريد، أو أنا أتمثل الفعل فى ذاتى، فأنا إذن أدرك نفسى كعلة، وإذن فأنا موجود، أو أنا كائن باعتبارى علة أو قوة » .

هذه الحقيقة الأولى التى يؤكدها دى بيران بكل قوة (حين يقول إن الذات تدرك نفسها باعتبار أنها مجهود، وإرادة، وفعل) تدلنا على أن فيلسوفنا هذا كان المؤسس الأعظم للمذهب الروحى فى العصر الحديث؛ وهو المذهب الذى ساعد على تقدم علم النفس ونظرية المعرفة، والعلوم الخلقية على وجه العموم، فى نهاية القرن التاسع عشر. والواقع أننا إذا نظرنا إلى بيران، سواء من الناحية الذاتية أو من الناحية الموضوعية، فإننا نجد أنه من أعظم المفكرين الذين قادونا إلى الناحية الباطنة فى الإنسان[1]. بل ربما كان بيران أعظم فلاسفة المذهب الروحى فى فرنسا. وهو بالفعل قد توفر على التوسع فى المذهب الروحى الذى أقامه أستاذه « ليبنتس »، فأظهرنا على أن الإنسان (فى حقيقة الأمر) ليس ألعوبة فى يد الأقدار، أو عبداً ذليلا للضرورة المستبدة، بل هو ذات مريدة فاعلة، لا تستمد نشاطها وقدرتهـا على الفعل من الأشياء الخارجية، بل من جهدها الإرادى ونشاطها الذاتى، أعنى من الإرادة ».

والنفس الإنسانية — فى نظر بيران — لا تتمثل باعتبارها

(١) لا بد لنا أن نشير إلى أن الناحية الذاتية عند بيران، كما تكشف عنها مذكراته الخاصة « Journal intime » تتفق تمام الاتفاق مع الناحية الموضوعية عنده، كما يكشف عنها كتابه الموسوم باسم: « علم الانسان » « Anthropologie ».

الأخلاق فكيف اختارهم الله؟ والجواب عند سيدنا موسى على ما ذكرته التوراة: لا تظنوا أن الله سيأتى بكم الأرض المقدسة بسبب قداستكم وطهارتكم وأنكم أفضل الناس فى طاعته. كلا. فإنه إنما يطرد الأمم أمامكم لرداءتهم ورجسهم المظلمين.

علي محمد حسن

المدرس بمعهد القاهرة

ذاتا فاعلة ، إلا بالممارسة المستمرة لقوتها الخاصة ؛ ما دامت هذه الممارسة حرة غير خاضعة لأية ضرورة أو قوة خارجية ، أى ما دامت غير متوقفة على قوى الطبيعة الخارجية .

وقد فرق بيران بين الإنسان والحيوان من جهة ، وبين الإنسان والله من جهة أخرى . غير أنه لم يقصد بهذه التفرقة أن يقيم هوات غير معبورة بين الحيوان والإنسان ، أو بين الإنسان والله . وإنما الذى اهتم به بيران وقصد إليه فعلا ، هو أن يقرر تلك الحقيقة الهامة عنده ، وهى أن الحياة الإنسانية بمعنى الكلمة إنما هى تلك التى تعلو على المستوى الحيوانى . وما يميز الحياة الحيوانية (فى نظره) هو أنها تخضع للانفعالات العمياء ؛ أعنى أنها لا تتميز بالحرية والإرادة والإختيار . وعلى الرغم من أن بيران لا ينزل بالحيوان إلى درجة « الآلة » ، كما فعل ديكارت ، فإنه يعتبر أن الحيوان يحيا دون أن يعرف ما هى حياته ، ويشعر دون أن يعرف أنه يشعر ، أى بعبارة أخرى ليس لديه « ذات » أو « إنية » .

أما الحياة الإنسانية فإنها تبدأ حيث تنتهى الحياة الحيوانية ، أى حيث يبدأ الشعور بالذات ، أو التجربة الباطنة التى تدرك فيها الذات نفسها على أنها قوة فاعلة وإرادة حرة . وبعبارة أخرى فإن الإنسان لا يحيا حياة إنسانية خالصة ، إلا بقدر ما يتحرر من الضرورة العمياء ، والأهواء الأنانية . والحيوانية داخلة فى الحياة الإنسانية ، نظراً لأن الإنفعال موجود فى الإنسان إلى جوار الفعل ؛ ولكن فى استطاعة الإنسان أن يشارك فى حياة غير إنسانية ، هى حياة الروح التى تعلو على الحياة البشرية . وفى هذا الصدد يتفق بيران مع نيتشه الذى يقول : إن الإنسان وتر مشدود بين الحيوان والإنسان الأعلى . — وما يميز الحياة الإنسانية بالنسبة إلى الحياة الحيوانية والحياة الروحية ، هو النشاط والشخصية وحرية الفعل ؛ أعنى الجهود الذى يبذله الإنسان فى مقاومة الأهواء ، وتنمية قواه النفسية ، من أجل الوصول إلى حياة إنسانية بمعنى الكلمة . أما بالنسبة إلى ما هو دون الإنسان أو ما هو فوق الإنسان ، فليس ثمة جهاد أو صراع ، لأنه ليس ثمة جهد أو مقاومة — .

والحياة الإنسانية هى فى أعلى صورها تحرر من نير الأهواء والإنفعالات ، وتجاوز لمرتبة الحياة الحيوانية ، وارتقاع إلى مرتبة الحياة الروحية .

زكريا ابراهيم
مدرس الفلسفة بمدرسة السويس الثانوية

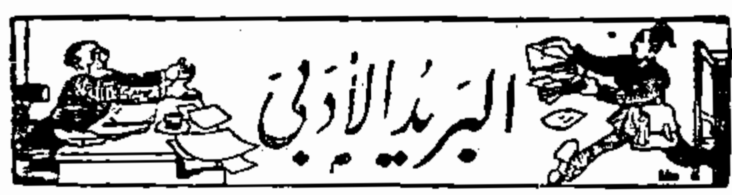
من وحى الصيف :

على جبل الرويس

للأستاذ حسن الأمين

سقياً لأيام الرويس فطالما ... كانت لأدواء الفؤاد دواء
ماق الجمال النضر فى ذرواته ... وعلى السفوح الماء والخضراء
ونشوقنا الأصباح فى أفيائه ... وتطيب حول كرومه إمساء
قد جئته قلباً ينوء بدهره ... هماً ويرزح شقوة وعناء
عبست له الدنيا فلم ير باسماً ... للناس إلا أن يكون رياء
رضى الشجون من الحياة صحابة ... ومن الزمان همومه خلطاء
حتى إذا برز الرويس وأقبلت ... دنياه تزخر متعة ورجاء
بعثت هوى القلب القديم وهيجت ... للحب فيه الوجد والبرحاء
وجلت لنا الحسن الرفيع وأطلعت ... فى كل أفق كوكباً وضاء
وطلعت يا ظمياء فى صرح الصبا ... وجهاً أغر ومقلة نجلاء
ودعوت للحب المبرح والجوى ... قلباً خلياً من هواك خلاء
أحببت أفياء الرويس وإنما ... أحببت من حبى لك الأفياء
فالليلة القمراء فيه لم تكن ، ... إلا بوجهك ليلة قمراء
والروضة الغناء ما كانت لنا ... إلا بحسنك روضة غناء
لم يحل لولاك الرويس ولم يطب ... أرضاً ولم يسنب لدى سماء
قد كنت بهجته وكنت رواءه ... فسما بعينى بهجة ورواء
تمشين فى الأرجاء عاطرة الشذى ... فتعطرين بعرفك الأرجاء
ويطل وجهك فى السجوف كأنما ... ألق السعادة فى السجوف تراءى
وأراك فى غسق الزمان فأجتلى ... نور الضحى من مقلتيك أضاء
يا أيها الجبل الأشم أسامع ... نجوى يرددها الفؤاد وفاء
إنى لأطرح فى ذراك كآبتى ... وأرد عن قلبى بك البأساء
وتهيجنى ظمياء فيك ملاحة ... وتثير أشواق لها إغراء
كانت ليالينا عليك ضواحكا ... أبداً وأيام الهوى غراء
أرشفتنا العذب الزلال على الظما ... ومنعتنا الأكدار والأقذاء
وعرفت فى واديك غر مباهجى ... ولمست تحت ظلالك السراء
إن تحبنى العيش الرغيد فلن أنى ... أشدو بذكرك فى الحياة غناء
وأرتل الشعر الرقيق منمقاً ... بجمالك الإنشاد والإنشاء

(بغداد) حسن الأمين



رأى الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في كتاب :

من يوميات محام

عزيزي الأستاذ عبده حسن الزيات

قرأت كتابك الجديد (من يوميات محام) فقضيت في قراءته وقتاً غير قصير استوعبت خلاله ما جاد به قلمكم من سديد النظرات، وبديع الأفكار والتأملات، وصادق الأماني والآمال وقضيت وقتاً آخر في الإعجاب بالروح التي أملت عليكم هذا الكتاب. إنها روح الرغبة المتوثبة في الإصلاح والنهوض القوى والبرم بما يعترض هذا الإصلاح من شتى العلل والعقبات. فياحبذا هذه الروح الطيبة وياحبذا الكتاب الذي يبرزها ويجليها!

رأيتك أيها الزميل تدون خواطرك وملاحظاتك اليومية عن المحاماة والحياة القضائية والإجتماعية عامة، وما أحوجنا إلى أن تعرف هذه الخواطر والملاحظات، فإن المحاماة ما هي إلا الحياة الإجتماعية على حقيقتها في معاملات الناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض وما يتخللها من صدق أو غش، ووفاء أو غدر، وشجاعة أو جبن، ونبل أو ضعة، وفضيلة أو رذيلة. إننا نشهد فيها صورة متناقضة من الحياة. ولقد جلوت هذه الصور، ومجدت النواحي السامية منها، واستنكرت نواحي النقص والضعف الخلقي فيها فجاءت يومياتك خير دعاية للمثل العليا.

رأيتك في كتابك تشرح بعض مواطن النقص من حياتنا القضائية عامة، سواء في دور المحاكم أو في ملفات القضايا أو في أقلام الكتاب والمحضرين، ولم يفتك أن تأخذ على زملائك في المهنة ما رأيت موضعاً للنقد. وفي الحق إنها لشجاعة أدبية تحمد عليها، وإنها لملاحظات ومشاهدات جديرة بأن تكون أساساً للنهوض في نواح عديدة من نظمنا القضائية والتشريعية؛ فإن هذه النظم على أنها سائرة في الجملة إلى الأمام في حاجة إلى معالجة وإصلاح مستمرين لا ينقطعان.

وفي كتابك ناحية أخرى جديرة بالإعجاب، وهي أنك ما أردت منه إلا الخير والإصلاح، وما قصدت إلا وجه الوطن، وعند ما انتهيت من قراءته عدت إلى التأمل في مقدمته التي تقول فيها:

« إلى مصر الخالدة، التي عاهدت ربي أن أعيش من أجلها، وأفنى في سبيلها، عزيزاً على عداتها، ذليلا على حماتها، سيداً حر الضمير في خدمتها، عبداً متقربا إلى الله بطاعتها ». فقلت وتحققت أن الكتاب يعرف من عنوانه.

فتقبل أيها الزميل الفاضل خالص تهنئتي على هذه التحفة الأدبية والإجتماعية والروحية التي أخرجتها لمصر وللناطقين بالضاد؛ وشكراً لك وألف شكر والسلام.

عبد الرحمن الرافعي

مكتبة الكيلاني للأطفال(1)

... وهكذا نجحت - يا أستاذ - في أن تحبب إلى الأطفال مكتبتهم وتغريهم بالمطالعة(2). ولئن أدرك الأطفال — رياض الأطفال - مراداً بعيداً، لقد فتحت لهم بمكتبة الأطفال - فتحاً جديداً. أدركت أرب نفوسهم، وأبدلتهم أنساً من عبوسهم، وهجت للمعالي أشواقهم، وحسنت لغتهم وأخلاقهم(3). والأستاذ الكيلاني منشئ مكتبة الأطفال أديب عالي جدير بما يهدف إليه من نبيل الأغراض(4). وإنه ليسرني - إذ أتابع مع التقدير هذا الجهد العلمي المتواصل - أن ألاحظ مقدار العناية التي تبذلونها في هذا السبيل، والفائدة التي تعود على النشء منه بتهيئة أذهان الأطفال وعقولهم لتقبل خير الأفكار والمعاني وتقديمها لهم على مثل هذه الصورة الطريفة(5). وإني وقد تتبعت هذا المجهود القيم المتصل لا يسعني إلا الإعجاب بما تساهمون به في سد نقص يشعر به جميع الآباء في تعليم أطفالهم(6). فشكر الله لك ما هدفت إليه من تنشئة الطفل: مشبوب الشغف بالقراءة والدرس، موفور الحظ من متاع الفكر، مستقيم اللسان على نهج البيان(7). فعي

(1) نخبة من آراء حضرات أصحاب الرفعة والمعالي والسعادة مرتبة أسماؤهم على الحروف الهجائية
(2) أحمد لطفي السيد باشا
(3) أحمد نجيب الهلالي باشا
(4) جعفر ولي باشا
(5) على ماهر باشا
(6) محمد بهي الدين بركات باشا
(7) محمد توفيق رفعت باشا

تمشى مع طباع الطفل الشرقى وغرائزه حتى يترعرع ، وتجعل الحلقة متصلة بين المدرسة والبيت ، فى قصص مناسبة متماسكة مع نفسية الطفل وعقليته وبيئته وما يهوى سماعه أو يميل لوعيه بأسلوب صحيح فصيح ، إذا حفظه الصبى صغيراً تفقه كبيراً [1] . ومن ثم يشب الطفل ، وقد صحت ملكته ، وأشربت الفصحى فكرته [2] .

إلى الأستاذ على الطنطاوى :

تفضلت أيها الأخ الكريم فكتبت كلمة جريئة موفقة فى نقد « النشيد السورى » ؛ ولقد أعجبنى هذا الشعور الوطنى الجميل الذى يدعوك إلى أن تجدد للوطن أناشيده وأهازيجه كما تجددت فيه روح الحرية والاستقلال ، ولكنى لاحظت أنك عند ما تعرضت لنقد هذين البيتين :

حماة الديار عليكم سلام
أبت أن تذل النفوس الكرام

قد قلت : « ثم هذا السلام المنكّر ، من منكر القول ، وهو بلهجة أروام الاسكندرية وأرناؤوط الشام أشبه ؛ وليس يليق بهذا المكان ، ولا محل له فى البلاغة » ... قرأت هذه الفقرة من حديثك فتوقفت ، وتفكرت ، فذكرت أن قول الشاعر « عليكم سلام » تعبير بليغ لا غبار عليه ، وقد اقتدى فيه صاحبه بالقرآن الكريم — المثل الأعلى لكل بليغ — ففى سورة هود « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً ، قال سلام » وفى سورة الذاريات : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال : سلام » . ولا شك أن إبراهيم قد أراد أن يكون جوابه أبلغ من تحية الملائكة ، اقتداء بأمر الحق تبارك وتعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها » فاستعمل الاسم المرفوع الدال على الدوام والثبوت ؛ ولذلك نرى الإمام جار الله الزمخشرى حينما تعرض لتفسير آية الذاريات السابقة يقول (م ٤ ص ٢٩ الكشاف) : (سلاماً) مصدر سادّ مسد الفعل ، مستغنى به عنه ، وأصله نسلم عليكم سلاماً ؛ وأما (سلام) فمعدول به إلى الرفع على الابتداء ، وخبره محذوف معناه عليكم سلام ، للدلالة على ثبات السلام كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذا بأدب الله تعالى ، وهذا أيضاً من إكرامه لهم » !..

ومن هذا يتضح للأخ الفضال أن تعبيره السابق عربى قرآنى بليغ ، ولولا أن نقد الأستاذ لتعبير الشاعر عمس تعبير القرآن الكريم من قريب أو من بعيد لما قوى الداعى الذى دعانى إلى توجيه هذا الحديث ، وجل المتعالى عن النسيان !

أحمد الشرباصى
من علماء الأزهر الشريف

مجلة كلية البوليس :

صدر العدد الثالث من مجلة كلية البوليس الملكية ويشرف على تحريرها الأميرالاى على بك حلمى . وهى حافلة بالأبحاث القيمة المتصلة بحياة رجال البوليس وعلاقتهم بالمجتمع فضلا عما حوته من البحوث التشريعية والبحوث الإجتماعية الوثيقة الصلة بعمل البوليس . وقد اشترك فى الكتابة بها طائفة من كبار رجال القانون والإدارة ممن اشتهروا بضلاعتهم فى العلم واكتسبوا خبرة عظيمة فى شئون الأمن ، ولذلك فسحت المجلة صدرها لفريق من طلاب الكلية فظهرت بها آثار أقلامهم الناهضة .

ومن ذلك نرى أن هذه المجلة تعد نهضة ثقافية جليلة الأثر فى حياة الكلية . ومرد الفضل فى ذلك إلى مديرها الأميرالاى على بك حلمى الذى اشتهر بهمته فى كل ما يلى من عمل والذى عرف ببحوثه القيمة فى كثير من نواحى الإجتماع .

ونحن إذ ننوه بفضله نستحث رجال البوليس جميعا على الإفادة من هذا الأثر الطيب ، ونستزيد محررى هذه المجلة بحوثا جديدة فى الأعداد القادمة ، ونرجو لها التوفيق التام فيما ترمى إليه من غرض كريم .

م . ف

تصويب :

وقع (أيضا ...) فى مقالة (هذيان مجنون) فى العدد ٦٤٢ تطبيعات ، هذا صوابها :

صفحة	عمود	سطر	خطأ	صوابه
١١٤٢	١	١٦	يرفق	يرقه
١١٤٢	٢	١٩	على خفقانه	عليه خفقانه

أما من ظن أنى أسخر بالجمعيات الإسلامية فليسأل الله أن يرزقه الفهم !

على الطنطاوى

(١) محمد حلمى عيسى باشا
(٢) محمد على علوبة باشا



أسطورة اسلامية من الأدب الروسي :

السلطان وولده ...

للكاتب الروسي مكسيم جوركي

للأستاذ مصطفى جميل مرسي

« يعد مكسيم جوركي — شيخ الأدب الروسي — قطباً من أقطاب الثورة البلشفية الذين مهدوا لها كانوا يسطرون لقيامها أمثال ليون تولستوي والامير كورباتكين. ولد جوركي في سنة ١٨٦٨، ونشأ فقيراً يعاني شظف العيش وذاق مرارة الحياة بين تلك الطبقة السفلى من المجتمع. فكان لذلك أثر جلي في طبع أدبه بطابع البؤس والشقاء. وفي هنا يصل مكسيم إلى ذروة فنه، وقد لبث جوركي يقود الحركة الأدبية في روسيا إلى أن وافته منيته سنة ١٩٣٦ بعد أن أخرج عدة كتب تعد من روائع الأدب الروسي ؛ منها « الأعماق السفلى » The Lower Depths وكتاب « ذكريات الشباب ».

وفي هذه القصة التي نقدمها اليوم إلى قراء (الرسالة) نهج جوركي نهجاً جديداً ولكنه رائع ممتع ... نهجاً يتجلى فيه خيال جوركي الخصب، وأفكاره البديعة، ومعانيه الجليلة وأساليبه الرائقة.

وسيلمس القارئ الكريم ذلك بيناً في هذه القصة ».

م . جميل

اعتمد « التاري » الأعمى ظهره إلى جذع شجرة من أشجار التوت، وراح يقص واحدة من تلك الأساطير التي سطرتها الذكريات في عقله عن شبه جزيرة القرم ... والتف حوله حشد من « التتار » في بردهم الوشاة المفوفة، ومطارفهم الزاهية الخلية ... وقرت فوق رؤوسهم قلانس مطرزة بالذهب ... وقد جلسوا على أحجار دارسة، وأطلال بالية، كانت حيناً قائمة في جدران قصر فاخر لسلطان من السلاطين القدماء.

كانت الشمس تنحدر نحو مستقر لها في البحر، فتبعث أشعتها الجاهدة الكليلة وقد راحت تخترق ستور الظلام ... وتعبث بحلكته، وتميس بين أوراق الطحلب فتخلع عليها روعة وبهاء، وتسيطر على الأطلال فتبعث فيها شيئاً من الرهبة والرواء ...

وبرحت الريح رخاء تداعب غصون الأشجار، وتصاول الأوراق فيسمع لها حفيف وزفيف ... وكأن صوت الرجل ينبعث واهناً فيه بعض من الاختلاج والاضطراب ؛ أما وجهه فكالصخر جامد لا ينم تجعده على شيء سوى الراحة والهدوء. وانسابت الألفاظ من لسانه حيناً، ومن قلبه أحياناً تعيد لسامعيه صورة جلية للأيام الخالية العامرة بالهناء ...

ولم يلبث أن قال في صوت جليل، وجرس ندي :

« زعموا أنه عاش في شبه جزيرة القرم سلطان يقال له ... « مسيلمة الأعراب » وكان له ولد يدعى « توليق الجلي » .

كان هذا السلطان كهلا، بيد أن قصره ضم كثيراً من النساء اللاتي عشقن السلطان الكهل ... فما زال جسده يموج قوة ونشاطاً، ولا زالت نفسه تمور مرحاً وشباباً ... وما برحت النساء يعشقن ذا القوة والبأس . ! إذ يقال ان الجمال يكمن في ثنايا القوة ... لا تحت الأظافر الناعمة والوجنات الأسيلة المخضبة ...

كن جميعاً يعشقن السلطان، ولكن السلطان ينصرف عنهن إلى ظبية سباها في حرب له مع « القوزاق » عند مروج نهر « الدنيبر » ... وكان يخص هذه الفتاة بجل حبه وعطفه وحنانه وينفر عن نسائه وجواريه وقد نيفن على الثلثمائة من كل فج وبلد. نسوة منهن العذراء والخود والبضة، والمطبول والغيداء والغانية والرقراقة إلى غير ذلك ... كانت كل منهن على جمال رائع كالزهور، وقد تفتحت أكمامها في صبيحة يوم ضحيان من أيام الربيع ...

لم يبخل السلطان عليهن بمال — بل كان ينفق عليهن بسعة ويجلب لهن ما يوددن ... أتى لهن بالخمر الفاخرة ... وبما لذ وطاب من طعام وشراب. وكان يأذن لهن بالرقص واللهو كما يحلو لهن. ولكن إيثاره للفتاة القوزاقية بحبه كان ينغص عيشهن بعض التنغيص ...

كثيراً ما كان يدعو الفتاة القوزاقية إلى جناحه حيث يشرف

على البحر المسيطر إلى الأفق ... حيث أعد لهـا كل ما تطمح إليه نفس امرأة ويهفو نحوه فؤادها كي تلحقها السعادة فى الحياة ... الحلوى والفاكهة والشفوف والغلائل ... والقلائد من ذهب، والأقراط من شذور، والوشائح من زمرد ... وغمت الطيور المتدلة بأغاريد عذبة ...

هنا غير ماميز به السلطان من لطف المعشر ودماثة وفتنة ... فى هذا الفردوس يقيم السلطان أياماً وليالى يمتع نفسه بهذا النعيم ويتذوق الراحة والسعادة وهى تسرى إليه بعد العناء الذى يلقاه من أعباء الحكم ... يقضى أيامه وقلبه آمن على ولده ... وقدرته فى أن ينهض بعظمة السلطنة إبان غيبته ... فهو يعلم كيف ينسل ولده إلى مروج الروس كالذئب فيغزوها ويغير عليها ... ثم يعود والنصر يعقد لواءه على رأسه ... فيكللها بآيات المجد والفخار ... يعود مثقلا بالغنائم والأسلاب ... والسبايا الفاتنة ... يعود بعد أن يخلف الذعر والإضطراب ... وفلول الأعداء ملوثة بالدماء والهزيمة ...

* * *

وحدث مرة أن عاد « توليق » من إحدى غزواته للروس فائزاً مظفراً ... فأقام حفلا دعى إليه الأمراء وعظماء الدولة ابتهاجاً بالنصر المبين ... وعقدت المباريات ومدت موائد الطعام ... وراح القوم يقذفون نبالهم على أعين الأسرى ليعرفوا من هو أشد الجمع ساعداً، وأصوب رمياً ... وعادوا إلى الشراب ينهلون حتى أترعوا وهم بين ذاك وذاك يمجدون هذا الفوز والنصر الذى أحرزه بطلهم العظيم « توليق الجلى » ... ويشيدون بالخوف والهلع وقد خلفهما ينخران فى عظام أعدائه.

أما السلطان فكان سروره بفوز ولده لا يعادله سرور ... وكان يعتقد أنه إذا ما انتقل إلى السماء سيستوى على العرش من بعده سلطان قوى مرهوب الجانب ...

رغب أن يبدى لولده مبلغ حبه وإخلاصه له — على مرأى من شعبه ورعيته فهم والقدح فى يده وقال :

« بنى العزيز « توليق » ... فتح من الله ونصر مبين ... والنصر آية من آيات رسوله ونبيه ... »

فارتفع صوت الحشد يترنم بأنشودة حماسية تمجد نصر النبى، ثم عاد السلطان فقال : « إن الله عظيم خبير ... لقد جدد قوتى ومضائى فى ولدى الأروع ... إنى لأبصر بعينى الناريتين عند ما يغيب شعاع الشمس عنهما إلى الأبد، وعندما يدب الفناء إلى قلبى النابض وأقضى نحبى ... أنى سأحيا ثانية فى نفس أخرى ... فى نفس ولدى ... فسبحانك اللهم أنت الإله الأوحد الجبار ... لقد رزقتنى ولداً عظيما صلب الساعد، ثابت الجأش رزين العقل فاللهم إنى أشهد بوحدانيتك وقدرتك، وأشهد أن محمداً رسولك ونبيك.

أبُنَىّ توليق ... ماذا تبغى أن تقدم لك يد أبيك ؟ . اذكر ماتود، وسأمنحك إياه. »

وخفت صوت السلطان رويداً حينما أخذ « توليق الجلى » يتأهب لإعلان رغبته، وقد تألقت عيناه تألق البحر فى ضوء القمر ... عيناه اللتان كأنهما عينا النسر وهو يحوم بقلة الجبل ... قال أخيراً :

— مولاى وأبت ... امنحنى الفتاة القوزاقية ... »

وصمت الوالد ليهدىء من روعه، ويسكن من نفسه المضطربة — ونؤاده الجياش ... وبعد برهة رفع صوته ثابتاً لا ينم عما يعتمل بنفسه : « ... خذها ... عند ما يختتم الحفل »

ثملت البهجة والمراح قلب « الجلى » ... وتألقت عيناه النسريتان بدموع الفرح ... وقال لوالده السلطان فى حب وبر :

— أى والدى ومولاى ... إنى لأقدر مبلغ هديتك إياى ... إنى لأقدره حق قدره ... إنى ابنك بل قل عبدك المخلص لك ... خذ دمى ... قطرة فى كل لحظة ... سأموت أكثر من ميتة فداء لك ... يا أبت ويا مولاى ... »

فقال السلطان وقد طأطأ رأسه إلى الأرض — رأسه التى طالما كلله النصر بآيانه سنوات متتاليات — « إنى لأرغب عن كل شىء. »

* * *

آذنت الوليمة بالانتهاء، فهم السلطان وولده يسيران من القصر إلى دار الحريم ...

وكانت السماء تغشيها السحب، فطوت القمر والنجوم فى

حجب منيعة . دام السير طويلا فى صمت وسكون ... وأخيراً قال السلطان « الأسراب » :

— ستفنى حياتى يوما بعد يوم ، وسيخفت قلبي فى خفقانه حينا بعد حين ... وستخمد رويداً هذه الجذوة المستعرة فى جسدى ... جذوة الحياة . لقد كان الضوء الذى يشع لى فى حياتى ، والدفء الذي يبعث لى بالحرارة هى تلك الفتاة « القوزاقية » ... خبرنى بُنَيّ « توليق » ... خبرنى إن كنت حقاً فى حاجة إليها ... خذ مائة من حريمى ... خذهن جميعاً ... بدلا منها ... »

صمت « توليق الجلى » ... فعاد السلطان التيم يقول :

— لقد تقضت حياتى — ولن ألبث طويلا فوق أديم هذه الأرض — فدعنى أنعم بحب هذه الفتاة ... إنها تعشقنى ... من ذا الذى سيحبنى بعد أن تنأى عنى ؟! يحبنى ... أنا يا من دبت فى جسدى الشيخوخة ... من ؟ ليست واحدة منهن يا توليق ... »

ولكن « الجلى » لم ينبس ببنت شفة . « بالله ... كيف يتردد لى نفس ، وأنا أحسب أنك تماقها ... وأنها تقبلك ؟ ... إذا كنا أمام المرأة يا توليق فلسنا والداً وولداً ... ليت جروحى — وقد تناثرت فى جسدى — نكأت فسال دمى حاراً دافقاً منها ... فهذا خير وأفضل من عيشى حتى هذه الليلة ... »

انتهى بهما المطاف عند باب الحريم ، فوقفا — وقد طأطأ كل منهما رأسه إلى الأرض — وشاع الصمت بينهما ، وشملهما الظلام . وفى السماء راحت بعض السحب تطارد بعضها والريح تميل الأشجار عن يمين وعن شمال ... وكأنها تترنم لها ...

قال « توليق » فى صوت هادئ رزين « يا أبت ... لقد أحببتها » فقال السلطان « أعلم هذا ... كما أنى أعلم أنها لا تحبك»

— إن قلبي لينفطر حينما أفكر فيها ...

— وإنى لأشد منك حباً لها ...

وعاد الصمت يحلق فوقهما ويرين عليهما ... فقال « الجلى » فى صوت فيه ألم ، وفيه عزاء :

— لقد أدركت الآن صدق الحكمة القائلة « المرأة خلقت لمتاعب الرجل » إن كانت حسناء راحت تترى الآخرين ليتملقوها فتوقظ فى زوجها آلام الغيرة والحسرة ... وإن كانت قبيحة ، فزوجها يعانى من قبحها ويعانى آلام الحسد ومرارة الحقد على غيره ... وإن لم تكن بالجميلة ولا بالقبيحة راحت تتدلل على زوجها وتجعله يعتقد أنه لم يقم بواجبه نحوها ، فهى إذاً مصدر شقاء الرجل وتعاسته فى هذه الحياة ... »

فقال السلطان :

— ليست الحكمة دواء ناجعاً لشقاء القلب ! يا بنى

— يا أبت ... يجب أن يشفق كل منا على الآخر

فرفع السلطان رأسه ، وراح يحدق فى ولده ... فقال « توليق »

— يا أبت ... دعنا ... دعنا ... نقتلها

فشك السلطان غير طويل ثم قال فى تمتمة هادئة :

— إنك تحب ذاتك أكثر منها ومنى ؟!

— أجل ... وأنت الآخر!

فقال السلطان بعد هنيهة فى صوت شاع فيه الألم ، وشاع فيه الحزن حتى لكأنه ارتد صبياً

— نعم ، وأنا الآخر

— سوف نقتلها يا أبت

— لن أدعك تأخذها لنفسك ... لن أدعك

— لا أقدر على مجالدة هذا طويلا ... إما أن تمزق قلبي أو تتركها لى . فلم يقل السلطان شيئاً ... « أو دعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى ... » فراح السلطان يردد هذه العبارة ، وكأنه رجع الصوت الذى أطلقه ولده ... وهو يهز رأسه فى شرود وألم

— دعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى ...

دخلا الحريم ، واتخذا وجهتهما حيث مرقدها فى فراش وثير ثمين ... فوقفا ساهمين ينظران ... وفى قلب كل منهما لهفة وشوق ... وألم

وانحدرت من مقلتى العجوز دمعات فسالت على وجنتيه ... ثم تألقت على لحيته ـ وقد حاكت الفضة فى لون شعرها ـ أما ولده فقد قام بعينين لامعتين ... يصر على أسنانه ليخفى ذلك الهوى الذى يضطرب بين جوانحه ... وقد راح يوقظ الفتاة «القوزاقية» ... أفاقت من نعاسها ، تفتحت عيناها على وجنتيها الورديتين فكأنهما زهرتان من أزهار الأقحوان ...

لم تبصر « توليق » ولكنها مدت شفتيها الأرجوانيتين إلى السلطان

— قبلني ، يا نسرى العزيز . فقال السلطان فى رقة :

— انهضى ... ينبغى أن تأتى معنا ...

ووقع طرفها على «الجلى» ، والدمع يتألق محبوساً فى عينيه .. فما أسرع ما أدركت ، وفهمت كل شىء ... وقالت :

— هه ... سآتى ... سآتى ... ليس لواحد منكما ... أليس هذا مبتغاكما ؟ وما قر عليه أمركما ... للقلوب القاسية أن تقرر وعلى النفوس الضعيفة الواهنة أن تطيع ... سآتى معكما ...

وانطلق ثلاثتهم شطر البحر فى صمت وسكون ... سلكوا فى سبيلهم مسالك ضيقة ، والريح لها صوت كعواء ابن آوى ...

كانت الفتاة نحيلة الجسد ، هيفاء القد ... فما أسرع ما أدركها الوهن والعناء ؛ ولكن كانت تعانى هذا فى صمت ، ولا يند عنها ما ينم عليه ... وإذ لمح ابن السلطان ما اعتراها — وكان يسير إثرها — أسر لها « أأنت خائفة ؟! »

فلمعت عيناها ، وأشارت إلى قدميها الداميتين ... فقال وهو يمد ذراعيه إليها « دعينى أحملك ! »

بيد أنها نفرت منه إلى عنق نسرها العجوز ... فرفعها السلطان كالريشة حاملا إياها ... بينما راحت هى تثنى أغصان الأشجار وتزيحها من أمام وجهه

وطال المسير ... وأخيراً طرق أسماعهم صوت البحر وهو يهدر ويزمجر على مبعدة منهم ... قال « توليق » موجهاً حديثه لأبيه « دعنى أمض أمامك » وإلا حدثتنى نفسى الأمارة بالسوء أن أغمد خنجرى فى ظهرك »

— امض ... كما تشاء ... إن الله سيغفر خطيئتك هذه ... ويعفو عن إساءتك ... فقد غفرت لك وعفوت عنك ، إنى لأعرف ما هو الحب يا بنى !

وأخيراً أبصروا البحر يجثم تحتهم ... كانت صخرتهم سامقة ، والظلام يسربلها ... الظلام الذى ليس له حد ولا نهاية ؛ وراحت الأمواج تهدر بألحان الموت وهو يسرى بين الصخور ... وقد أخفاها الظلام يحفه القر والخوف .

قال السلطان بعد أن طبع على ثغر الفتاة قبلة حارة : « وداعاً » .

وقال « الجلى » وهو يحنى هامته لها « وداعاً ... » .

ألقت الفتاة بطرفها إلى ما تحتها حيث صخب الموج يردد ألحان الرهبة والجلال ... فضمت يديها إلى صدرها وقالت فى هلع وفرق « إقذفا بى ... » .

مد « توليق » يديه إليها وهو يئن ويتأوه ... ولكن السلطان أخذها بين ساعديه وضمها إلى صدره وقبلها ثانية ... ثم رفعها فوق رأسه وألقى بها من الصخرة الشاهقة إلى واد سحيق ... وارتفعت ألحان الموج .. ألحان الموت .. أجل رهبة وأشد فزعاً .. ولم يُسمع للفتاة صيحة وهى تلقى فى الماء ، أو تلقى حتفها على الصخور .

وتهالك السلطان على نشز وراح يحملق فى الظلام يحاول بطرفه أن يخترق سجف الليل ... سجف الغيب ... وما برحت الأمواج تلطم الصخور فى جنون وهوج ... والريح تهب عاصفة فى أعقاب موكب الموت ... تعبث بلحية السلطان العجوز .

وجلس « توليق » جواره وقد دفن وجهه بين راحتيه ، لا يتحرك ولا ينبس ... وكأنه الصخر ...

وتقضى الوقت والسحب يطارد بعضها بعضاً فى جو السماء ...

شاعت الكآبة فى ثنايا الظلام الرهيب المهيب ، وكأنها تلك الأفكار التى راحت تطوف سوداء بخاطر ذلك السلطان العجوز ... وهو جاثم على هامة الصخرة السامقة ، ومن تحته البحر يهدر فى واد عميق ... قال « توليق » :

— « أبت ... دعنا نمض ... » .

فنبس السلطان همساً ، وكأنه يتوجس نبأة تسرى فى الهواء : « مهلاً » .

وعاد الوقت يمضى ، والأمواج تتلاطم فى عبث وجنون من تحتهما والريح تصفر بين الأشجار كعواء ابن آوى ... وعاد الابن يردد عبارته ، فردد السلطان إجابته ... وكان هذا الترداد مراراً ... كأن السلطان لا يبرح مكانه ... وقد قبر فيه بهجته ومراحه ... وأيامه الخوالى ...

بيد أن لكل شىء نهاية ، فلم يلبث السلطان أن قام نشيطاً ، ولكن عابس الوجه ، مقطب الجبين وقال فى صوت شاع فيه الجفاء :

— « هيا ... بنا ! »

وانطلقا ... ولكن لم يلبث السلطان أن وقف قائلا :

« لمَ أطلق معنـك يا توليق ... وإلى أين ؟! لمَ أعيش بعدها ؟! لمَ أعيش بعد أن ذهبت بعيداً عنى ... إنى عجوز ولن يهوانى أحد ثانية ... وإذا لم يهوك أحد فليس ثمَّ خير فى أن تعيش بهذا الكون ! » .

— « إنك ذو مال ! وذو مجد يا أبت ! » .

— « دعنى أرتشف من ثغرها قبلة من قبلاتها نظير هذا المال » ...

هذا المجد ... يا بنى . إن الناس جميعاً أموات فى هذه الحياة والحى منهم هو الذى يعشق النساء ... إن الحياة هباء بغير النساء ، يا بنى ... بارك الله فيك وفى ملكك ... فى حياتك وفى مماتك » .

واتجه السلطان شطر البحر ... فصاح « توليق » فى هلع « أبت ... أبت ... » . ولم ينطق بغير هـذا ... لأنك لا تجد الكلمات تلفظها لرحل باقى حتفه باسماً راضياً رجل آيس من حياته

— « دعنى أرحل ... » فقال « توليق » : « الله يا أبت ... »

— « إن الله يعلم ، وسيغفر لى » وخطا سريعة مفى السلطان إلى نهاية الصخرة ... وألقى بنفسه إلى أحضان الوادى ... لم يُسمع شىء فقد عصفت الريح إثر موكب الموت وهو يمضى فى جلال وراحت الأمواج تدوّم هديرها ، وكأنها فى عراك عنيف مع الصخور ...

وأخذ « توليق » ينظر ويطيل النظر إلى حيث الهوة السحيقة .. إلى حيث الموت تحت قدميه ... ثم ارتفع صوته جليلا ورأسه إلى السماء : « يا إلهى ... أسألك أن تلهم قلبى الصبر والسلوان وأن تغفر لوالدى وتشمله برحمتك إنك غفور رحيم » .

ثم مضى عائداً إلى قصره والصمت يحف به ... حتى غيبه الليل فى مطارفه ... » .

مصطفى جميل مرسى